

الفصل الحادي عشر

يُدُّ تَبْنِي وَيُدُّ تَقَاوِم

يَدُ تَبْنِي وَيَدُ تَقَاوِمُ

لما وصلت ساحة البيت، وقد أُعدَّت للاستقبال، وتوسع لأكثر من 200 رجل، سلّمت على الوالدة التي أخذتني بالأحضان، ودخلت على الوالد وهو طريح الفراش، لمرض ألمّ به وأقعده، رحمهما الله، وسلمت على الحاضرين وعلى الوافدين. وكان حفلاً تحدّث فيه العلماء، وتحدّث فيه إلى الحضور، وقلت: هذا البيت تشرفّ بزيارة المؤسس الشهيد أحمد ياسين، وزاده شرفاً أنه بات فيه مرتين. وهذه بركة حظينا بها، ولما رأته أمي، وعلمت أنه مقعد، وأنه يتنقل على هذا الكرسي الذي يجلس عليه، قالت: ”سبحان الله، يجعل سرّه في أضعف خلقه“. ولكن الشيخ ما كان ضعيفاً، وإن أقعده الشلل، بل هو المرابي والأستاذ، ومحرك الجيوش بإشارة منه.

ثم إن الأستاذ أبا سليمان حسن القيق جاعني بزيارة خاصة، وعلمت أنه يرتب لي وضعا خاصاً على صعيد القدس، لأتصدّي لهموم الناس من خلال مكتب في بناية من بنايات شارع صلاح الدين، ومن هذا المكتب، ومن هذه النافذة، نحاول محلياً وميدانياً استقطاب الحس الوطني، للوقوف في وجه هذا التغول باتجاه تهويد المدينة وتحجيمه. وكذلك كيفية دعم أهلنا في القدس، حتى يحبطوا مكر الصهاينة، ويحافظوا على وجودهم الذي يتعرض للاقتلاع.

لكن في ظني ما كان هذا الأمر لينجح؛ لأن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية تطاولت على كل شيء في البلد حتى ”بيت الشرق“، بعد أن رحل عنه عمدة القدس فيصل الحسيني، والذي لا يُلوّح بتدمير دولة الاحتلال، بل هو وجه منظمة التحرير في القدس، والتي وقعت صلحاً مع الاحتلال. ثم أتت على مسرح الحكواتي، ذي الصبغة الوطنية فأغلقتة، فكيف بنا نحن والحرب على أشدها مع هذا الاحتلال؟ وكيف بي أنا مع هذا الاحتلال، وعلى عينه يصبح مكتبنا خلية عمل للوافدين من القيادات الوطنية، وعامة الناس؟ والاحتلال هو من جعلني طريداً لعيونه؟

الترشح للانتخابات الهجس التشريعي:

بقيت على صمّتي، ومع رغبة الأستاذ في حساباته بشأن الانتخابات، التي بدأت تتبلور معالمها، بعد أن اتخذ قرار المشاركة. وبوضوح تام، كانت رغبة الأسرى في السجون ورأيهم يدفعان بي إلى أن أرشح نفسي للانتخابات، وهذا من جميع الفصائل،

حماس وفتح والشعبية والديمقراطية. لكن جنديتي بقيت على عهدا مع حسابات الأستاذ (حسن القيق)؛ إلى أن استقرت الأمور في الترشيحات وتحديد الأسماء، وغلب الرأي عند إخواننا أن أكون حاضراً في هذه المرحلة على صعيد الانتخابات، فلقد جاءني الأخوان المهندس خالد أبو عرفة، والمجاهد أحمد عطون، وبتوجيه من الأستاذ قالوا لي: وقع الاختيار عليك لتكون مرشحنا في القائمة عن القدس، والثاني في الترتيب بعد الأخ المجاهد إسماعيل هنية¹. فقلت في نفسي أنا أعرف دربي، ونحن قوم لا حصانة لنا إلا عند الله، ثم قلت لهما أستخيراً إن شاء الله.

والمرء كثير بإخوانه، والخيرة فيما اختاره الله. ولقد سبق أن دعيت لكلمة في مهرجان انتخابي، على صعيد المحليات والبلديات في بلدة صوريف، التي خرجت الأبطال: جمال الهور، وعبد الرحمن غنيمات، والدكتور سمير القاضي²، وفي ملعب البلدة الرياضي، كان الحاضرون بالألوف، وقد رشح أهل البلدة الدكتور الفاضل سمير القاضي لرئاسة البلدية، فقلت خلال هذا اللقاء: إنه التغيير الذي انتظرته الجماهير، ويقوم عليه رجال خرجوا من حظوظ أنفسهم، وإنه الإصلاح الذي لا بديل عنه إلا الخراب. ومن اختار على التغيير والإصلاح بديلاً، فالله يقول: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مَصْرًا﴾³. وأنتم اهبطوا، لكن ليس مصر، وإنما "اهبطوا فتحاً، فإن لكم ما لبني إسرائيل من البقل والقثاء".

أما كون ترتيبي الثاني على القائمة، فالله يشهد وهو المطلع على السرائر، أن الدنيا بما فيها لا تستخفني لهذه المواقع. وعيب على شبيبة شابت في الإسلام، وبعد خمسة وخمسين سنة أن تستهويها المناصب، إلا إذا اقتضت الحاجة التنظيمية وليست الشخصية، عندها تكليف. فقد اتصل بي من سجن النقب أحد الكرام وطلب مني أن أتخلى عن ترتيبي

¹ انظر: ملحق الوثائق، الوثيقة رقم (20)، ص 532، ملصق انتخابي لقائمة التغيير والإصلاح لانتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني الثانية تحت شعار "يد تبني ويد تقاوم"، والذي يأتي ترتيب الشيخ أبو طير فيه ثانياً. [المحرر]

² سمير صالح القاضي (1956-): حاصل على شهادة البكالوريوس في الطب من أوكرانيا، ومتخصص في الأمراض الباطنية. شغل منصب مدير المستشفى الأهلي في الخليل، وانتخب سنة 2005 رئيساً لبلدية صوريف. شغل عضوية عدد من اللجان والمؤسسات، أبرزها عضوية الهيئة الإدارية لنقابة الأطباء والهيئة الإدارية لجمعية الشبان المسلمين. اعتقل عدة مرات. وانتخب على قائمة التغيير والإصلاح ممثلاً للخليل في الانتخابات التشريعية سنة 2006.

³ القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 61.

هذا للأخ المجاهد الدكتور محمود الزهار⁴، لأنه قدم من أبنائه، والدكتور الزهار أخي، وهو حقيق بأكثر من هذا. فقلت لصاحبي (غفر الله له): الموضوع لا يتعلق بالأشخاص، وما أنا الذي اخترته، وهذا الموقع للقدس، والقدس هي أكبر من كل هذه الاعتبارات. ولو عرض هذا الترتيب على الدكتور الزهار لرفضه.

وفي جوِّ الانتخابات، وخلال أيام قطف الزيتون، الذي هو إلى جانب كونه محصولاً رئيسياً، فهو غذاء أساسي عند هذا الشعب، وعند شعوب العالم، فهو شجرة مباركة، وشعار لأمة متميزة في موقعها، فهي لا شرقية ولا غربية، وللزيتون في نفسي حبٌّ عظيم؛ لأنه يعبر عن الجذور. وذات يوم حملتني رجلاي مشياً على الأقدام إلى وادٍ مشهور عندنا بالزيتون، واسمه "الوادي الغربي"، وبعيداً عن البيت وعلى أطراف القرية، لتحصيل القليل، بعد أن انتهى الناس من القطف؛ لأنني أجد متعتي في ذلك، ووحيداً في الخلاء. وإذا بالأخوين أبي مجاهد عطون، وإبراهيم عميرة في الطريق إلى بسيارتهما يجدان في طلبي، وبعد التحية والسلام، اصطحباني إلى مكتب لكتلة التغيير والإصلاح في رام الله، حيث يعمل فيه فريق من الإخوة، بإدارة المجاهد باجس نخلة—رعاه الله—وقدمت إليه صوراً شخصية وأوراقاً ثبوتية، وما يلزم العملية الانتخابية.

الحملة الانتخابية:

لما بدأت الحملة الانتخابية وتصاعدت حدتها، وسط تغطية إعلامية، شملت فترة الانتخابات وما بعدها. وكان لنا فريق عمل وخطة عمل، بإمكانيات مادية متواضعة لا ترقى إلى المطلوب، لكن الحاضر القوي هو الجهد البشري، فقد تفانى شبابنا في العطاء، وخرجوا من تحت الأرض، في مفاجأة للعدو الصهيوني، الذي قال: من أين خرج هؤلاء؟ وما علم أن جذورنا ضاربة في الأرض، وعصية على الاقتلاع، مهما تفنن عدونا في حربنا⁵.

⁴ محمود خالد الزهار (1951-): ولد في مدينة غزة، حاصل على شهادة البكالوريوس والماجستير في الطب من مصر. عمل في عدد من مستشفيات قطاع غزة، وعمل رئيساً ومحاضراً لقسم التمريض في الجامعة الإسلامية بغزة. شغل عضوية عدد من اللجان والمؤسسات، واعتقل عدة مرات في سجون الاحتلال وفي سجون السلطة. انتخب في انتخابات المجلس التشريعي سنة 2006 ضمن كتلة التغيير والإصلاح، وشغل منصب وزير الخارجية في الحكومة التي شكلتها حماس بعد فوزها في المجلس التشريعي. جرت عدة محاولات لاغتياله واستشهد اثنان من أبنائه.

⁵ انظر: ملحق الوثائق، الوثيقة رقم (22)، ص 535، خبر عن محاصرة الشرطة الصهيونية لاجتماع تمهيدي لإطلاق الحملة الانتخابية للحركة الإسلامية في القدس، وحديث للشيخ أبو طير في المؤتمر، صحيفة منبر الإصلاح، العدد 17، الأحد 1426/12/8 هـ الموافق 2006/1/8 م. [المحرر]

كانت أولى خطواتنا أن نفتتح حملتنا في ملعب مخيم قلنديا؛ لأن العدو الصهيوني حظر علينا أي دعاية، أو لقاءات انتخابية، داخل جدار الفصل العنصري، فكانت قرى شمال غربي القدس وشرقيها، هي الميدان على صعيد العمل الجماهيري.

هذه القرى التي أعطت الكثير، لكنها حتى الآن مظلومة، ولا يتعرّف عليها أحدٌ من أصحاب الشأن في القدس، الذين يقولون عن هذه القرى إنها محسوبة على رام الله، ولا ميزانية لها عندنا. وأهل رام الله يقولون هذه القرى لا تتبعنا، وللحق فلا شأن لهم بذلك، لأنها قرى شمال القدس، حتى وإن أخرجها الاحتلال من جغرافية القدس، فهذه القرى سجّلها الانتخابي محسوب على القدس، وهي تاريخياً تابعة للقدس.

قلت، كان لنا فريق عمل ناجح، ونجح في إدارة الحملة الانتخابية. وكان يقود هذا الفريق شاب من خيرة شبابنا، ومجبول على الإصرار والتحدي، هو الأخ رامي الحلواني، الذي قام على الأمر بجدارة، ومعه طاقم لديه من الخبرة والكفاءة ما يكفي لتخطي الصعاب، منهم هيثم طه (أبو أحمد)، ومن وراء الجميع المهندس الأستاذ حسن القيق، يساعده المهندس خالد أبو عرفة. وقد ذهب وفد منا فيه المهندس خالد إلى فتح والجبهة الشعبية، لننزل جميعاً في قائمة وطنية واحدة، على صعيد دائرة القدس، لكنهم أخذتهم العزة... فقالوا: لا نريد، قلنا لهم: لنا نائبان، ولكم أربعة: مسلمان ومسيحيان، قالوا: لن تحصلوا على شيء.

انطلقنا إلى مخيم قلنديا، وصلينا الجمعة في مسجده، وعلمنا أن تنظيم فتح في المخيم أتى إلى الملعب الرياضي، والذي من المقرر أن يقوم عليه احتفالنا... فخرّبوه بالجرافات، وحرثوه حتى يعطلوا علينا خطواتنا الأولى. واتصل بي نافذ أبو شلبيك، من المحسوبين على تنظيم فتح في المخيم، فقال لي: هذا المخيم مغلق أمام الدعاية الانتخابية، ولن نسمح لمحمد نافع، وهو ابن المخيم، أن يمارس حقه في الدعاية الانتخابية. وهذا كلام لا تجد فيه إلا الضعف، فهل الملعب الرياضي خاضع لمزاج نافذ أبو شلبيك والتنظيم من بعده؟ غير أن هذا مزاج عبثي لفؤاد فارغ من الثقة.

على كل حال، لم نبرح المسجد، فطلبت من الأخ المجاهد ع. ا. أن يأتينا بوجهاء المخيم للحديث معهم، فاعتذروا؛ لأن المخيم يعيش على وقع قعقعة السلاح. فصبرنا لصلاة العصر، وبعدها تحدثت إلى الناس عن تأليف القلوب، وأن ما جئنا من أجله هو خيار ديمقراطي، من واجب الناس أن يحترموه. ثم خرجنا من المسجد في

مظاهرة تكسوها الرايات الخضراء. وما إن وصلنا إلى الشارع العام وإذا بالبلطجية، يخرجون علينا بالحجارة والأخشاب والسواطير، واعتلوا المنازل، وقذفونا بالحجارة، وجاهد إخواننا بكل الإمكانيات أن يحولوا دون الاحتكاك، لكن القوم قد أعدوا العدة، وقام فريق من الإخوة بحمايتي من الحجارة المتناثرة، وكان المجاهد (أبو صالح) محمد عمار يقيني بنفسه من هؤلاء المعتدين. وإخواني يتلقفونني من هنا وهناك، حتى مزقوا عليّ قميصي، ولحق بي أحد أفراد التنظيم بساطور في يده وشرعه عليّ، فالتفت إليه، فتمسمر في الأرض، والله يشهد كأنما أسقط في يده. وتراجع وعلى وجهه الانكسار⁶.

وفي الليلة نفسها، ذهبت وأخي أبو مجاهد عطون إلى بيت لحم، لحضور مناظرة ضمت جميع الفصائل، موضوعها الانتخابات... وكان فيها عن فتح الأخ النائب عبد الله عبد الله، وتحدث من حضر كلٌّ عن برنامجه الانتخابي. ووَّجَّهت إلينا أسئلة عن الشريعة وتطبيقها، وهل سنفرضها على الإخوة المسيحيين في البلاد، وكانت لنا أجوبتنا الشافية، حيث ابتدأت بالحديث، عما جرى لنا في مخيم قلنديا، والاعتداءات التي تعرضنا لها في يوم انتخابي، وتنظيم فتح في قلنديا حتى الآن لم يستوعب التغييرات، ويرفض أن يقبل غيره، وربما لا يقبل نفسه. ثمَّ قلت: ما فرضنا الشريعة على أبنائنا، فلي بُنِيَات ما قلت لواحدة منهنَّ البسي منديلاً أو جلباباً، وإنما هو اختيارها الشخصي وقناعاتها. وذكرت أن لي أخواً وصديقاً مسيحياً اسمه أوليغ، والعاطفة التي بيننا يفتقر إليها كثير من الناس. وذات مرة في بيتي بحضور صحفيين أجانب، وكان المترجم من فتح، وأنا لا أدري ولا يهمني انتماؤه، لكن شغلني أمر في البيت، وبقي صاحبي أوليغ مع الصحفيين، وأخذ المترجم يحرض علينا وهو في بيتي، فرد عليه صاحبي، والمترجم والصحفيون لا يعلمون أن صاحبي مسيحي، فقال لهم: أنتم في فتح ظلمتمونا، ولم يظلمنا هؤلاء الذين تحرَّض عليهم، فحماس تعاملت معنا باحترام، وهم أقرب إلينا منكم، لقد اعتدت قرية دير جرير باسم فتح على نصارى الطيبة، ولم يقف إلى جانبنا إلا حماس. لا تتحدث عن حماس في بيت الرجل، وحضرت بعد ذلك وعلمت بالقصة.

⁶ انظر: ملحق الوثائق، الوثيقة رقم (21)، ص 533، بيان مرشحو كتلة التغيير والإصلاح عن دائرة القدس وأنصارهم يشجبون تعرضهم لإطلاق النار في مخيم قلنديا من قبل مسلحين من فتح، 2006/1/6. [المحرر]

ولقد علّق الأخ رامي الحلواني على همجية من تعرضوا لنا في قلنديا، فقال: هذه بداية الانتصار. وبعد أن نجحنا في الانتخابات، قمنا بزيارة إلى مخيم قلنديا، واستقبلنا أهل المخيم استقبالا حاراً. ويقدر الله أن نحصد من الأصوات في المخيم، أكثر مما حصده فتح. أما عائلة امطير في المخيم، فمنهم فتح ومنهم حماس، وشباب حماس من هذه العائلة استبسوا في الدفاع عنا، حتى أن أخوين منهم اقتحما على الرماة أسطح البنايات، وقد أغلقوا عليهم الأبواب فكسروها، وأتوا على المعتدين فأوجعهم ضرباً.

واصلنا حملتنا الانتخابية، ولنا في كل قرية محطة، فبلدة حزما من أهم المحطات التي يُسجل لها، فهذه البلدة يتصف رجالها بقوة الشكيمة، ومن التقيتهم من جميع الفصائل، عندهم أدب وخلق. وفي حزما كان لنا لقاء جامع مع حشد من أهل القرية، وحديثنا عن المشاركة في الانتخابات تحت شعار التغيير والإصلاح. ونحن لا نرفع شعاراً يخالف قناعاتنا، أو يخالف ما نؤمن به، فالتغيير والإصلاح دفعنا ضريبتهما على مرّ السنين، قضيناها في سجون الاحتلال، وخاصة بعد الفوز الذي حققناه. والذي أعجبني وأسجله للتاريخ، أن رجلاً طاعناً في السن، قال موجهاً الحديث إليّ: أيها الشيخ (وقد كان معي إخواني المرشحين، النائب أحمد عطون، والنائب محمد طوطح، والمهندس خالد أبو عرفة، ورامي الحلواني، وهيثم طه وآخرون) قال: أنتم من بقي لنا، أنتم الطلقة الأخيرة المتبقية، إياكم أن تسقطوا البندقية من خياركم... فأشفي بحديثه هذا غليلي، وقلت الحمد لله أنه يوجد مثل هذا النفس عند كبار السن فينا، فطمأنت الرجل والحاضرين، وقلت له: أبشر. فقد سرني هذا المنطق، ومنظمة التحرير لما أسقطت خيار البندقية سقطت وتردت، وأصبحت بلا بوصلة.

نعم، هذه ليلتنا في حزما، وما من بلدة أو قرية من قرى القدس، إلا وزرناها والتقينا أهاليها في المساجد والساحات العامة، وحظيت بلدة بدو بلقاء حاشد، من جميع القرى المحيطة بها. وفي بيت عنان، وغيرها من قرى الضفة الغربية، خرج علينا حزب التحرير بفتاويه، فالحرب مع الصهاينة ليست في وارده... ولا هي ضمن حساباته... خرج علينا بتحريم الدخول في هذه الانتخابات. ونسوا أنهم دخلوها أيام الأردن سنوات الخمسينيات من القرن الماضي، ويوم أن كان "غلوب" باشا قائداً

للجيش الأردني⁷، بينما نحن طاردنا الاحتلال، وخذلنا حزب التحرير، وأوذينا وسُجنا لسنين، حتى نتنازل عن فوزنا... فأبى علينا ثباتنا أن نعطي الدنية، أو أن نتراجع القهقري أمام صلف الاحتلال، ولمن أراد أن يستزيد عن حزب التحرير، أنصح بقراءة كِتَابِي الأستاذ جواد بحر النتشة: قراءات في فكر حزب التحرير الإسلامي، والطريق إلى الدولة الإسلامية عند حزب التحرير⁸.

أما ضربة النجاح الرائعة للحملة الانتخابية فقد عمل عليها منسق الحملة الانتخابية عندنا الأخ رامي الحلواني، وأعلن للصحافة عن مؤتمر صحفي لنا عند باب الساهرة، المقابل لشارع صلاح الدين، ثم في اللحظة الأخيرة، وحتى يربك شرطة الاحتلال، التي لاحقتنا داخل الجدار وخارجه، وحتى بعد الانتخابات... في اللحظة الأخيرة، أعلن عن المؤتمر الصحفي أمام باب الأسباط. ونحن خارجون من صلاة الظهر، وما إن التقينا الصحافة، ولم نتمكن من افتتاح المؤتمر، وإذا بالقوات الخاصة من الشرطة، تحاصرنا وتعزلنا عن الصحافة، وتشتبك بالأيدي مع بعض الإخوة، ثم يقتادوننا إلى سجن المسكوبية. وحاولوا ابتزازنا واستفزازنا في التحقيق، ولكن دون جدوى، ثم مننا ليلتنا في المسكوبية، ومع الساعة العاشرة صباحاً، أطلقوا سراحنا، وهم يضربون كفاً بكف، على فشلهم وتعهم الذي ذهب سدى، وقد نقل الإعلام هذه الجولة من الصدام⁹. وكان ذلك يوم 2006/1/15.

⁷ ترشح تقي الدين النبهاني (1914-1977) مؤسس وأمير حزب التحرير للانتخابات النيابية الأردنية قبل تأسيس الحزب، وكان ذلك في انتخابات المجلس الثالث التي جرت في آب/ أغسطس 1951، بعد أن استقال من العمل في سلك القضاء الشرعي. كما شارك الحزب في انتخابات المجلس النيابي الرابع التي جرت في تشرين الأول/ أكتوبر 1954، وترشح للحزب في هذا المجلس كل من داود حمدان (القدس)، وعبد القديم زلوم (الخليل)، وأسعد بيوض التميمي (الخليل)، وعبد الغفار كاتبة (الخليل)، وأحمد الداغور (طولكرم)، ومحمد موسى عبد الهادي (جنين)، ولم يفز للحزب سوى النائب أحمد الداغور. وبعد خروج غلوب، كانت انتخابات المجلس النيابي الخامس في تشرين الأول/ أكتوبر 1956 والتي فاز فيها الداغور كذلك، إلا أنه أسقطت عضويته في المجلس في 13 أيار/ مايو 1958 بعد الحكم عليه بالسجن بتهمة عرقلة ومقاومة موظف في أثناء عمله، ونشر وإذاعة أنباء يقصد منها زعزعة الثقة بالدولة. [المحرر]

⁸ انظر: جواد بحر النتشة، قراءات في فكر حزب التحرير الإسلامي (الخليل: مطبعة الهدى، 2007)؛ وجواد بحر النتشة، الطريق إلى الدولة الإسلامية عند حزب التحرير (الخليل: مركز دراسات المستقبل، 2009).

⁹ انظر: ملحق الوثائق، الوثيقة رقم (24)، ص 547، خبر عن الاعتداء الصهيوني على مرشحي حماس، في القدس مرفق بصورة لاعتداء الشرطة الصهيونية على الشيخ أبو طير أحد المرشحين، صحيفة منبر الإصلاح، العدد 18، الثلاثاء 1426/12/17 هـ الموافق 2006/12/17 م. [المحرر]

شكلت مشاركة حماس في الانتخابات التشريعية والمحلية انقلاباً اجتماعياً، وحظيت بدعم جماهيري تردد صدهاء في أنحاء المعمورة. وإن نجاح حماس في الانتخابات البلدية والمحلية أعطى مؤشراً واضحاً أين تتجه الأمور؛ وكذلك على صعيد الغرف التجارية، فقد فازت حماس بالغرف التجارية في معظم البلديات والمجالس المحلية... وتوقفت انتخابات بلدية الخليل بسبب المكر الذي حال دون ذلك؛ لأن الفوز محسوم لصالح حماس. وحتى كتابة هذه السطور بقيت مدينة الخليل دون انتخابات، خلافاً لكل مدن الضفة الغربية وقراها.

ولقد كنت على ثقة تامة أن الانتخابات إذا سَلِمَت من التزوير فإن حماس ستحصد ما لا يقل عن 70 مقعداً، من أصل 132 مقعداً في المجلس التشريعي. وخوفي من التزوير هو الذي جعلني أتحفظ على قول الحقيقة، ولقد شهد على ذلك الأخ النائب أحمد عطون، وقال: الشيخ أبو مصعب هو الوحيد الذي كان يصر على هذه النتيجة، وبلا تحفظ.

ولما سألني الأخ الحبيب أبو العز الكتري من غزة، عن نسبة النجاح التي أتوقع حصادها، قلت له، وكان ذلك قبل يوم الانتخابات بليلة، إن الذي أتوقعه نسبة 65% من مقاعد المجلس التشريعي، وقلت له: سنحصد إن شاء الله 70 مقعداً، إن لم يحصل التزوير. ويشهد الله أنني كنت وإخواني نمشي بين الناس، ونلتقيهم وأقول لإخواني: أرى النصر في عيون الناس، وكان ذلك. ويوم أن انطلق الشارع الفلسطيني للانتخابات في يوم 2006/1/25، كان السباق محموماً، وجرت اعتداءات على بعض الدوائر، خاصة دائرة الزعيم شرقي القدس، لكن إخواننا حافظوا على حضورهم لمنع التزوير ما استطاعوا.

نتائج الانتخابات ورحيل "الأستاذ":

في اليوم الثاني من الانتخابات، خرجت النتائج بالفوز الساحق للتغيير والإصلاح، وأعلن عن أسماء الفائزين، وإذا بكتلة التغيير والإصلاح تحصد 74 مقعداً من مقاعد التشريعي 132، حيث دعمت حماس أربعة من المستقلين، هم جمال الخضري، وحسام الطويل وهو مسيحي، وزياد أبو عمرو من غزة، وحسن خريشة من الضفة الغربية، فكانت الحصيلة 78 نائباً، منها 49 مقعداً عن الدوائر، و29 مقعداً عن القائمة النسبية.

في الخليل، حصد نوابنا عن التغيير والإصلاح جميع المقاعد، عن الدوائر، وهي تسعة، وكان الشيخ نايف الرجوب أكثر النواب أصواتاً، فقد حصل على 59,885 صوتاً، بينما حصل أخوه جبريل من حركة فتح على 38,367 صوتاً، أي أقل من الشيخ نايف بـ 21,518 صوتاً.

وفي بيت لحم نجح اثنان عن التغيير والإصلاح، واثنان من فتح وفق "نظام الكوتة" للمسيحيين، وفي رام الله والبيرة حصد نوابنا أربعة مقاعد، وكان الخامس لـ "الكوتة" المسيحية. وفي نابلس كذلك حصد إخواننا ثمانية مقاعد من تسعة، على صعيد الدائرة، وفي جنين وطولكرم مناصفة. أما في غزة، فالشهاد سعيدي حصد أعلى رقم في الضفة الغربية وقطاع غزة، فقد حصل على ثقة 71,908 أصوات.

وبعد هذا الفوز جمعنا الفرحة في بيت أستاذنا حسن القيق، وتناولنا الحلوى بمناسبة زواجي لا بمناسبة الفوز، وتحدث الأستاذ إلينا: الإخوة خالد أبو عرفة، وأحمد عطون، ومحمد طوطح وأنا، وحذرنا من متاعب الطريق، وقال: أنتم مقبولون على تحديات كبيرة.

وفي غمرة هذا الفوز، والمهنتون لا ينقطع حبلهم، رحل حسن القيق عن هذه الدنيا، بتاريخ 2006/2/7، بعدما ألت به جلطة دماغية فارق على أثرها الحياة، رحل أبو سليمان ونحن في أمس الحاجة إليه، وكما قالوا: في لحظات النصر يرحل العظماء.

لقد كان حسن القيق، رحمه الله، وهو المربي الفاضل والمهندس البارع، بكل جوراحه، مع المقاومة، ومع عدم المهادنة، ومع المقاطعة لجميع ما يجلبه الاحتلال، وكان يفرح لضربات المجاهدين والاستشهاديين، ويفرحه وجع العدو. وذات مرة في سنة 1998 سألني، رحمه الله، عن الوضع الجهادي بشكل عام، وعن الشهيد عادل عوض الله، بشكل خاص، فشكوت له ضيق الحال على الصعيد المالي، فقال: لا تقلق، بعض أنابيب الضخ فيها "الصغيرة من الحجارة"، وستتعافى إن شاء الله.

لقد كان، رحمه الله، عندما يراني يتلألاً وجهه، وتنفرج أساريره عن ابتسامة رائعة، وهو بلا شك بيتسم للجميع، ولكنه كان يؤثرنى في حبه. وكنت كثيراً ما أزروه في البيت، أو في المدرسة، وأضع بين يديه بعض الملمات أو الهموم أو الإشكالات، أو إحاطة بجديد، وهو يحيطني بكثير من عنده وعنده الكثير... الكثير. ولحبه لي، وكثيراً ما جمعنا الولايم، اجتمعنا في بيته على وليمة لضيوف كرام من إخواننا خارج البلاد، فانتقاني من

بين الحاضرين أن أهتم بضيوفه، وهو الحاضر وبكلمة منه: "دير بالك عليهم"، وعلى عادتنا في "المناسف"، أفتت اللحم أمامهم جميعاً، ومنهم من أخصه بلقمة في فمه.

رحمك الله يا أبا سليمان، ولا أحسبه (ولو لمرة واحدة)، أنه استقبل ضيفاً إلا بلباسه الرسمي، كائناً مَنْ كان، ولا يفتح السيارة لأم لسليمان إلا هو. رحمك الله يا أستاذنا، ومنذ الأيام الأولى بعد احتلال سنة 1967 للقدس والضفة، وبصحبة الحاج راضي السلايمة، وبسيارتك المتواضعة، وأنت تجوب البلاد من أجل إعادة البناء، وترتيب البيت من الداخل، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٠﴾﴾¹⁰، وأحسبك عند الله هكذا.

العول التشريعي وإعلان الحصار:

لما عزم الرئيس الفلسطيني محمود عباس على إجراء الانتخابات... اجتمع المجلس التشريعي السابق والمحسوب على فتح، وأخذ يفصل مقاسات العملية الانتخابية، مرة على القوائم، ومرة على الدوائر، وحسبها جيداً، حتى لا تحظى حماس بحضور قوي في المجلس التشريعي... لكنهم غلبوا، فما حصلوا إلا على 45 مقعداً منها 17 مقعداً عن الدوائر، و28 مقعداً عن القائمة. وإذا كان البيت الفتاوي منقسماً، بل كان متآمراً على نفسه، وقبل أن تلومنا فتح على الحسم سنة 2007، أقول لهم: لوموا أنفسكم على الحرب التي خاضتها الأجهزة، بعضها ضدّ بعض، فأنتم مَنْ فتح أبواب الدماء، منذ أن أتت بكم أو سلو، واسألوا أنفسكم من قتل الأستاذ أسعد الصفاوي؟ ومن قتل المحامي أبو شعبان؟ ومن قتل هشام مكي؟ وجميعهم محسوبون على فتح. ثمّ مَنْ المسؤول عن دماء الشهداء، التي سألت أمام مسجد فلسطين، والمصلون خارجون من الصلاة، ومن قتل طالب الجامعة من آل عقل؟ ولصالح مَنْ؟ وهل من أحد سمع، أو رأى أن دولة الاحتلال قتلت يهودياً، من أجل عيون العرب أو سواهم؟ بينما سلطة أو سلو، وكثير من الأنظمة العربية، قتلوا شعوبهم من أجل الاحتلال، ومن أجل كراسي الحكم !!

في آخر جلسة للمجلس التشريعي السابق برئاسة روجي فتوح، وكانت غير قانونية، وتعويضاً عن الهزيمة التي مُنيت بها فتح في الانتخابات، اتخذ المجلس قرارات، ما كان ليتخذها لو بقيت الحال لصالح فتح، فسُنَّ قوانين وخرج علينا بتشريعات، وعيّن

¹⁰ القرآن الكريم، سورة الواقعة، آية 10-11.

بموجبها إبراهيم خريشة أميناً عاماً للمجلس التشريعي، باعتباره مسؤولاً تشمل مسؤوليته رئيس المجلس التشريعي. وبهذا القرار صرنا تحت رحمة إبراهيم خريشة، الذي رشح نفسه للانتخابات وما نجح، وفي القانون الأساسي لا يجوز أن يبقى في وظيفته؛ لأنه قدّم استقالته، ورشح نفسه للانتخابات. ولقد حضرتُ جلسة تعيين خريشة مع أخي الشيخ النائب فضل صالح¹¹، والنائب أحمد عطون كزائرين، وبدت الجلسة كأنها تعويض عن عشر سنوات ماضية، قياساً على العدد الهائل من القرارات الصادرة عن تلك الجلسة.

وفي جلسة القَسَم، التي كانت في قاعة المقاطعة، حضر جميع النواب إلا الأسرى منهم، وأدوا جميعاً اليمين أمام الرئيس عباس. ثمّ وقفت وأعلنت عن مرشحنا لرئاسة المجلس التشريعي الدكتور عزيز الدويك¹²، واعتمد والحمد لله، وأقمنا صلاة الظهر في القاعة نفسها، وكانت الصلاة مادة دسمة لوسائل الإعلام، التي قالت إن رجال حماس جعلوا من قاعة الاجتماعات في المقاطعة مصلىّ لهم.

وبالقَسَم الذي أديناه بهدياً أصبحنا أعضاءً في المجلس الوطني الفلسطيني. وقد أعلن ذلك رئيس المجلس الوطني (أبو الأديب) سليم الزعنون.

بعد ذلك انعقد المجلس تحت قبته الرئيسية، وافتتحها رئيس المجلس الدكتور عزيز الدويك، وبدأت المشاكلة بقيادة عزام الأحمد. وكنا نعرف أن أحدهم فيما سبق في المجلس السابق، يحضر ويثبت وجوده ثمّ ينصرف، بينما في عهدنا فلا مغادرة أبداً، وانتهى الفلتان التشريعي إلى غير رجعة، إلا أن يكون على حسابهم. أديننا اليمين من هنا، وازداد الحصار ضراوة، وعوقب الشعب الفلسطيني من الدول التي تدعي

¹¹ فضل محمد صالح (1953-): ولد في قرية دورا القرع شمال رام الله، حاصل على بكالوريوس الشريعة من الجامعة الأردنية. عمل كواعظ متجول، وإمام، وخطيب؛ من أشهر خطباء ودعاة محافظة رام الله. فرضت عليه الإقامة الجبرية سنة 1986 لنشاطه القيادي في جماعة الإخوان المسلمين. أبعث إلى مرج الزهور سنة 1992، واعتقل عدة مرات في سجون الاحتلال الصهيوني لنشاطه القيادي في حركة حماس. اعتقل في سجون السلطة الفلسطينية سنة 1996. انتخب لعضوية المجلس التشريعي الفلسطيني عن محافظة رام الله والبيرة، واعتقل لذلك في سجون الاحتلال الصهيوني.

¹² عزيز سالم الدويك (1948-): ولد في الخليل. حاصل على دكتوراه في التخطيط الإقليمي والحضري من الولايات المتحدة الأمريكية. عمل محاضراً في جامعة النجاح الوطنية، واعتقل عدة مرات من قبل قوات الاحتلال الصهيوني. كان الناطق الإعلامي باسم مبعدي مرج الزهور بالإنجليزية. انتخب في سنة 2006 عن محافظة الخليل لعضوية المجلس التشريعي ضمن قائمة كتلة التغيير والإصلاح، وهو حتى كتابة هذه السطور رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني.

الديمقراطية؛ لأنه نجح في الامتحان الديمقراطي، الذي تمّ بأعلى درجات النزاهة والشفافية، وبشهادة العالم أجمع.

وبعد هذا الفوز، بدأت شرطة الاحتلال تلاحقنا من مكان إلى مكان، وكانت تعترض طريقنا، وتقيّد حركتنا، حتى في زيارتنا للمستشفيات وشركة الكهرباء والكليات الجامعية. لكن، وعندما نجحنا استدعتنا هذه الشرطة، وجلست معنا بقيادتها، وقدموا لنا التهاني، وقالوا: أنتم الآن نواب عن الشعب الفلسطيني، ونرجو منكم أن تحافظوا على المزاج العام. فقلنا لهم: نحن في خدمة شعبنا، ولأجل هذا دخلنا الانتخابات، وسنعمل حسب ما يمليه ضميرنا... ثمّ انتهى اللقاء.

لكن تغيرت السياسة فيما بعد، وليس وراء ذلك إقرار سياسي، فبدأت المطاردة والملاحقة، والاحتجاز على بوابات القدس لأكثر من ثلاث ساعات من كل ليلة في طريق عودتنا من رام الله إلى القدس، حتى ولو كانت الساعة الواحدة ليلاً. هذه الإجراءات اقتصرت فقط على نواب القدس من كتلة التغيير والإصلاح، فنجاحنا وفوزنا بجميع المقاعد عن القدس، إلا مقعدين للإخوة المسيحيين، حسب نظام الكوّة، قد أعطى الوجه الحقيقي لطبيعة هذه المدينة ولهويتها. وجُنّ جنون الصهاينة لهذه النتيجة، وقالوا: من أين خرج علينا هؤلاء؟ أربعون سنة من التهويد، ثمّ تأتينا هذه المفاجأة. لقد فقدوا صوابهم؛ لأنهم لا يريدون لهذه الرمزية أن تتصدر هموم أهل القدس، وأن تشكل الوجه السياسي للقدس. ولكن: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾¹³.

لقد قالوا عن هذا الفوز: إنه "التسونامي" الأخضر، وإنه الزلزال الذي له ما بعده، وكما أن فوزنا حوَصر من الخارج، فقد حوَصر كذلك من الداخل، من خلال ممارسات فتح في مؤسسات السلطة. فالسلطة ومؤسساتها قائمة على جيش من فتح، وقالها نبيل عمرو بعد فشله في الانتخابات: سيدخل الحمساويون مؤسسات كل مَنْ فيها ينتمي إلى فتح، وهذا سيحول بينهم وبين نجاحهم. وفي زيارة لمكتب توفيق الطيراوي قال معلقاً على الأحداث في غزة: أرى الحرب الأهلية في طريقها إلى الضفة الغربية. فقلت له: الذي يتكلم عن الحرب الأهلية هو مَنْ يسعى إليها ويدبر لها.

¹³ القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 54.

وعلى صعيد لجان المجلس التشريعي، فقد انتدبت في لجنتي القدس والداخلية، ومضت بنا الأيام والشهور والحصار يزداد ضراوة. فالحصار كان من قبل، ومن أيام الرئيس عرفات، لكن مؤسسات الرئاسة ومنظمة التحرير لم تخضع للحصار إلا ظاهراً، والمنظمة قبل فوزنا احتضرت وماتت، وإن لم يُصلوا عليها صلاة الجنازة، وما دبت فيها الحياة إلا بفوزنا. وأصبحت المنظمة مرجعية بعد أن طويت، وانتهى مفعول الميثاق الوطني الفلسطيني.

ظلال الحصار:

لما قضى الرئيس عرفات نحبه، وأتى إلى القيادة من بعده الرئيس محمود عباس، حرص كل الحرص على تهدئة الساحة الفلسطينية، وليس ذلك عيباً، إن أجمعت الفصائل على ذلك.

لقد أصبح أبو مازن حاجة ملحة بعد رحيل عرفات، ولأنه مقبول لدى المجتمع الدولي و"إسرائيل"، بعدما تبين دور الرئيس عرفات في تسليح الانتفاضة، ودعمه كتائب شهداء الأقصى المحسوبة على فتح بالمال. وأبو مازن لا يؤمن بعسكرة الانتفاضة، وهو رجل "سلام" مقبول عند "إسرائيل" والأمريكان. ومن خلاله سترتب أوراق الساحة الفلسطينية، على مزاجه، ظاناً أن "إسرائيل" ستعطيه حقه عن طريق المفاوضات، والمفاوضات لا غير، هي التي ستأتيه بالدولة الفلسطينية، وما علم أن "إسرائيل" لن تسمح بقيام دولة فلسطينية، لا في غزة ولا في الضفة الغربية. نعم، لقد توقع من الإسرائيليين أن يفتحوا أبواب المفاوضات على مصراعها، وخصوصاً بعدما تخلصوا من عرفات، وجاءهم الرجل المناسب والمطلوب، ولكن الإسرائيليين كعادتهم، إذا لم تكن القوة حاضرة، وحارسة للمشروع الوطني، أو أن العجز في الساحة سمة الموقف، فهي لا تأبه وتدير ظهرها، ولا تعبأ بمفاوضات ولا مجاملات.

إن أبا مازن، الذي أتى بأوسلو وكان عرابها، لا يؤمن بالخيار العسكري، حتى وإن واكب الثورة الفلسطينية منذ انطلاقتها وهو من مؤسسيها. ولقد بلغ به الأمر في لقاء جمعه مع شارون أن وجّه له الشكر على إخراج الثورة الفلسطينية من لبنان عام الاجتياح 1982، لتصل سفينة العودة إلى شواطئ أوسلو، وما نسي أبو مازن ولن ينسى، أن الصهاينة هم من هجروه من مدينته صفد في الجليل الأعلى

سنة 1948، وهم من منعه من دخولها لزيارة بيته بعد أوصلو، ليستعيد الذكريات، ورجع خائباً لا يلوي على شيء.

لقد كان أبو عمار يرفض إجراء الانتخابات لاعتبارات وحساباته، ولا يريد من أحد أن يفسد عليه مزاجه السياسي. وكان على ثقة أن حركة حماس والقوى الأخرى ستحظى بثقة الشارع من خلال صناديق الاقتراع، ولأنه لماح ويعرف ما يدور في الساحة. ووقع ما كان يخشاه ويحذره، فكانت الانتخابات، وكان الطوفان الذي قلب الموازين وغير الحسابات. أما أبو مازن، فقد أخذ على عاتقه أن يخرج بالساحة الفلسطينية، إلى تجربة جديدة تم الاتفاق عليها من خلال تفاهات القاهرة سنة 2005، مع جميع قوى الساحة الفلسطينية. وعلى الرغم من التحذيرات من داخل فتح، وفتح لا تحسن أن تبقى على خلافاتها مستورة، بل طغيان المصالح والانتهازية يدفع بها إلى نشر غسيلها، وعلى الرغم من التحذيرات من الانتخابات... وعملوا على إرجائها وتأخير موعدها غير مرة، ولحالة الفوضى التي عاشتها فتح، والتناحر الداخلي على من يكون، ومن لا يكون، ولعشر سنوات وهي مستحوذة على المجلس التشريعي. بلغ عدد المتنافسين من فتح على أربعة مقاعد لمحافظة القدس 39 مرشحاً، فاتهم الفوز جميعاً.

إن أبو مازن، بالرغم من التحذيرات، صمم على إجراء الانتخابات، بعدما انسحب شارون من غزة من طرف واحد، ضارباً عرض الحائط بأي شراكة مع أبي مازن. وجرت انتخابات الرئاسة قبل سنة من الانتخابات التشريعية، وحصل أبو مازن على نسبة 62% من أصوات المقترعين الذين لم يتجاوزوا نسبة 65% ممن يحق لهم التصويت من الشعب الفلسطيني داخل الضفة الغربية وقطاع غزة، وهي انتخابات قاطعتها حماس. ولقد أراد أبو مازن أن يعزز موقعه من خلال تجربة ناضجة، تعيشها الساحة الفلسطينية؛ لأنه تعب من حالة الترهل التي دُهِيت بها فتح. وبعد فوز حماس في الانتخابات... توجهت إليه كوادر فتح باللوم، وقد أصر على النتائج كما هي فقال لهم: حملتموني عفن أربعين سنة، فماذا تريدون مني؟

وبالفعل، تمردوا على "البرايمرز" (الانتخابات الداخلية في حركة فتح)، ولم يحترموا اللوائح الداخلية، ومنهم من فرض نفسه بقوة السلاح على القائمة النسبية، ومنهم من تنازل مقابل أن يصبح سفيراً أو محافظاً... وعلى هذا قس. لقد دخلنا

الانتخابات في أعقاب وثيقة وقعها صائب عريقات والجانب الإسرائيلي، وأن القدس ضمن دائرة الانتخابات، وبموافقة أمريكية وأوروبية، ولأن مظاهر الفساد استشرت داخل مؤسسات السلطة.

إن إجراء الانتخابات كان مطلباً أمريكياً وأوروبياً وإسرائيلياً، لكن "لم تكن العتمة على قدر يد الحرامي"، بل كانت الصدمة لأمريكا و"إسرائيل" وأوروبا. فكانت ردة فعلهم تنكرهم لهذا الخيار الديمقراطي، ولم يحترموه، بل يريدونه على المزاج الأمريكي والمقاس الإسرائيلي، وهذه قرصنة مارسها الرئيس الأمريكي ووصيفه توني بليز Tony Blair، رئيس الوزراء البريطاني الأسبق.

دخلنا الانتخابات، والأمني عند مَنْ خططوا لها، أن نكون معارضة عاجزة عن التغيير، وقابلة للتحجيم، بل شاهد زور على خطيئة أوسلو. ويريدون منا أن نشارك ولا نزاحم، لكننا كنا واضحين في دخولنا الباب، والشعار يتردد على مسامع الناس: "يد تبني ويد تقاوم"، ولن يقوم هذا إلا بهذا، ونحن نتلو على مسامع هؤلاء من كتاب الله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ ۱۸ فَفَعَّلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ۱۹ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ۲۰ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ۲۱ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ۲۲ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ ۲۳ فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝ ۲۴﴾ صدق الله العظيم.

لقد انتهى أوسلو بفوات وقته وسقفه، فسقفه سنة 1999، ووقته خمس سنوات ثم الدولة. ولكن بدلاً منها أعيد احتلال الضفة الغربية من جديد، ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾¹⁵، واندحر الاحتلال من غزة تحت ضربات المقاومة. ومن المعيب أن تبقى غزة تحت رحمة "إسرائيل"، وقد تحررت، والثورة كانت تقول: الأرض للسواعد الثورية التي تحررها. وقد سأل شارون المستشار القضائي للحكومة: هل بقاء قواتنا في الشريط الحدودي مع مصر، يعدُّ احتلالاً؟ فأجاب المستشار: بقاء جندي واحد احتلال. وإن العرب بعجزهم، شاركوا بدور رئيسي في حصار غزة، وبالتالي تابعت "إسرائيل" عربدها. ونحن نعلم أن هناك مَنْ يتكئ على بقايا أوسلو، لأغراضه الشخصية ومنافعه الذاتية، وإلا مِنْ أين لقيادات السلطة وتابعيهم هذه الأموال الطائلة؟ وهذه المشاريع القائمة؟ وهذا التبذير على شراء الذمم؟ والتسليح لحرب أهلية بدلاً من الحرب مع الاحتلال؟

¹⁴ القرآن الكريم، سورة المدثر، آية 18-24.

¹⁵ القرآن الكريم، سورة الحاقة، آية 8.

مقدمات الاعتقال:

لم يمضِ على فوزنا أربعة أشهر، وإذا بوزير داخلية الاحتلال المجرم روني بار أون Roni Bar-On، الذي هاجر إلى فلسطين من المغرب، يطل على نواب القدس ووزيرها المهندس خالد أبو عرفة بقرار تعسفي ظالم، حدده لنا بشهر من تاريخ صدوره وهو 2006/5/29 إلى 2006/6/29، يخيرنا فيه بين المواطنة أو الانسحاب من التشريعي، وأن تسحب هوياتنا المقدسية، أو التنازل عن عضوية التشريعي. ”طيب“، لماذا نحن؟ فالقدس، ومنذ إحدى عشرة سنة ونواب التشريعي فيها، وفي هذه الدورة كذلك، من القدس نوابٌ عن فتح، ولم يتعرضوا لما تعرضنا له. ”طيب يا خربانين“ قلت لي من خلال التحقيق: شيخ أبو طير، فكيف عسكرة، واذهب إلى عالم السياسة والإعلام، وإذا بعالم السياسة أشد وأنكى في ضريبتة من العسكرة. وكما قالت أمي، رحمها الله: ”صحيح لا تكسر، ومكسر لا تأكل، وكُل حتى تشبع“، و”لا مع جدتي بخير، ولا مع خالتي بخير“. يا بار أون.. يا ابن الحاقدة، أنت بالأمس جئت إلى فلسطين مغتصباً، وعائلتي هنا في القدس لأكثر من سبعمئة سنة. فكيف أطرده من بيتي؟! وأنت من جئت محتلاً سنة 1967؟

استدعتنا شرطة المسكوبية بتاريخ 29 أيار/ مايو، مساءً، المهندس خالد أبو عرفة، والنواب: محمد طوطح، وأحمد عطون، وأنا، وانتظرنا لساعة، لا ندرى ما الأمر من وراء استدعائنا، وإذا بهم يخرجون علينا بهذا الحقد، وجودكم مرهون في القدس لفترة هذا الشهر من 29 أيار/ مايو، إلى 30 حزيران/ يونيو 2006، وبعد ذلك الطرد، إذا لم تتنازلوا عن عضوية المجلس التشريعي، ”طيب“، لماذا وافقتم على دخولنا الانتخابات؟ لماذا من البداية، لم تقولوا لنا ممنوع عليكم ممارسة هذا الحق؟ وإلا ستسجنون، أو ستطردون؟ وتدخل المحامون، وفي ظنهم أنهم قادرون عليها. لكن الاحتلال لا يحتاج إلى تسويغ أفعاله وممارساته، وكل احتلال يهون عن احتلال الصهاينة، وكان معي في السجن قديماً سنة 1981، أخٌ من جباليا اسمه يوسف عبد الهادي، كان يقول لي: العيش مع القرود ولا العيش مع الصهاينة... وصدق فيما قال.

رجعنا إلى بيوتنا والهموم لا تفارقنا، والله هذه حرب، وحرب العسكرة عندي أهون من حرب السياسة، ”وأعوذ بك رب من غلبة الدين وقهر الرجال“. ومرت أيام الشهر إلا واحداً، وإذا بطارق يطرق علينا البيت بعد الساعة الواحدة ليلاً. وإذا بهم طوارق الشر،

ومعهم أمر باعتقالي بعدما فتشوا البيت، وصادروا كتباً وأوراقاً وجهاز حاسوب، وألبومات من الصور... وحتى ذكرياتك يأتون عليها فيقتلونها.

لم يكن مستغرباً عندي ذلك، فحَدِّي كما يقال، "معوّد على اللطيم"، وحصل هذا بعد يوم ساخن من العمل النيابي المرهق، فمواقنا جعلت منا قبلة للناس، وفوزنا هذا إن وَسِعَ الناس، فلا يسع العلية من الأقوام. وهذا فوز لا تُطيقه الملوك، ولا أصحاب المصالح؛ لأنك لن تقبل على نفسك أن تكون مطية لغير الحق. وهذا الفوز دفع بنا إلى مواجهة مع الطغاة في الأرض، ويكفينا من هذا الفوز، أننا صححنا المسار، وعدنا بالقضية الفلسطينية إلى مربعها الأول، بعد أن ضلّت بها السبل. وهذا الفوز ﴿نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾¹⁶، فهو الطوفان الذي أربك القرار السياسي لدولة الاحتلال، وفاجأ المؤسسة الأمنية المسؤولة عن القدس، حتى قالوا في إذاعة خبر الفوز: حماس تسيطر على القدس.

ولكن المصيبة أن تصادر مواطنتنا في القدس، وهناك لدى قيادة السلطة في رام الله مكرّ الليل والنهار حتى لا يكون لنا نجاح من خلال هذه التجربة، واعتداء علينا في المجلس التشريعي، وتظاهرات مسيّسة تمنع رئيس المجلس من الدخول إلى المجلس، وإطلاق نار، وحرق داخل أبنية المجلس، وفي رئاسة الوزراء. والسؤال، لماذا الاعتداء على هذه المؤسسات؟ فهي وطنية وأملاك عامة، إن كنا فيها اليوم، فقد لا نكون فيها غداً. وما ذنب المحلات التجارية حتى تحرق؟ وما ذنب النواب الإسلاميين حتى يعتدى عليهم ويخطفوا؟ وتحرق مكاتبهم فيما بعد؟ فما هذه الازدواجية في المواقف؟ قلت لإخواني من أبناء القدس، وقد جمعنا إفطار جماعي في الساحة الشرقية من المسجد الأقصى، إننا لا نتمنى الابتلاء، ولكنه في الطريق إلينا، وأعدوا أنفسكم لذلك. وليس هذا فحسب، كل العالم له حصانة، إلا نحن، وإن كنا نواباً عن هذا الشعب، فلا حصانة لنا إلا عند الله سبحانه. ولم يطل الأمر حتى اعتقلنا. وأكثر من هذا، فإن فريقاً من جهاز المخابرات المسؤول عنه توفيق الطيراوي، يريد ليّ ذراعي، عن طريق تهديدي بإسقاط أعزّ الناس على قلبي، إن استلمت وزارة من الوزارات، فأني مستوى وصل إليه القوم؟!!

¹⁶ القرآن الكريم، سورة النجم، آية 56.

ودون شرح عن بطاقة الهوية، أقول: لا يشرفني وأهلي في القدس، وعرب فلسطين في الداخل، أن نحمل بطاقتهم، ولولا العيب والحياء، لأتيت بطفل وجعلته يبول عليها أمام الصحافة.

التشريعي والوزارة في السجن!:

ليلة الاعتقال كنا في جلسة مع الإخوة في حزب التجمع، الدكتور عزمي بشارة، والأستاذ جمال زحالقة، والأستاذ واصل طه، وهم أعضاء في الكنيسة الإسرائيلي، وناقش معهم ما خرج علينا به بار أون، كان ذلك ليلة الخميس 29 حزيران/ يونيو في فندق "كريسمس" في القدس. وكان مع النواب والوزير أبي عرفة الإخوة رامي الحلواني منسق مكتب النواب، وهيثم طه مرافق الوزير، وكان جواً أخوياً، ولا يختلف عمقهم، ولا فهمهم الوطني عما نؤمن به. فهم من النضج بمكان، وعلى الخصوص الدكتور عزمي، وهم منا ونحن منهم، ونعيش هموم هذه القضية.

ليلتها كما ذكرت، طرّق الأشرار علينا الباب بقوة ووحشية أفزعت الجيران، فقلت: "اللهم اكفنا شرّ الأشرار، وكيد الفجار، وطوارق الليل وطوارق النهار، إلا طارقاً يطرق بخير، يا أرحم الراحمين". وقد ذكرت ما فعلوا، فإنهم لا يعطونك فرصة لترتدي ثيابك، ومنهم لصّ حاول سرقة طقم أقلام باركر، وزد على ذلك يحرمونك من التلويح بيدك لأهلك، ولقد ألقوا بما في المكتبة من كتب على الأرض.

إن كل هذه الممارسات نابعة من نفسيات مهترئة خربة. وساروا بي بعد ذلك إلى ناقلة حرس حدود، وهم مدججون بالسلاح. ولما وصلت إلى مغتصبة رامات راحيل، وإذا بقائد منطقة جنوب القدس في الشاباك وهو الميجر إياس يعترض الناقلة، ولما شاهدني رحّب بي، فسألته: ماذا يجري؟ وماذا من وراء هذا الاعتقال؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ فأجابني بصراحة: يا شيخ أبو طير، "باعل بيت" عندنا — وهو يقصد رئيس الحكومة —... جُنّ جنونه، وفقد أعصابه، أي والله بهذه الكلمات بالعبرية. إن إيهود أولمرت Ehud Olmert هو ربّ البيت، وهو من فقد أعصابه، وخاصة بعد أن اختطفت كتائب القسام الجندي جلعاد شاليت Gilad Shalit يوم 2006/6/25. ثمّ قال لي: لا أدري إلى أين أنتم ذاهبون. وكان قد استدعاني إلى مكتبه في رأس العامود، بعد خروجي من السجن بتاريخ 2005/6/8، ومعه قائد منطقة القدس في الشاباك

واسمه باراك، وقائد منطقة المسجد الأقصى كذلك. فالأقصى له ضابط من الشابات متخصص بالأوقاف الإسلامية. وحاصرني ثلاثتهم لأكثر من ثلاث ساعات في أسئلة من هنا وهناك، وباطنها وظاهرها فيه التهديد والوعيد. وقال لي باراك قائد منطقة القدس: لقد حذرني منك قبل عشرين سنة على التمام أبو مارون، قائد مخابرات منطقة صور باهر في الشابات، وقال لي: "خل عينك على الشيخ أبي طير".

بعدها سارت بي الناقلة في شوارع القدس، حتى وصلنا إلى معسكر بيتونيا، وعند الصهاينة اسمه "عوفر"، وفيه سجن ومركز تحقيق ومحاكم عسكرية. وقبل الاحتلال كان معسكراً للجيش الأردني، وفي هذه الليلة أتوا على 64 من نواب الضفة الغربية، ورؤساء المجالس البلدية والمحلية، المحسوبة على التغيير والإصلاح، والوزراء كذلك¹⁷. وكان وصولنا للمعسكر متزامناً مع أذان الفجر، سمعناه من مسجد قرية رافات المجاورة، وصلينا الصبح والقبود في معاصمنا. ودخلنا على ضباط التحقيق، وكانت أسئلتهم تليفقات خبير من جهاز الأمن عندهم، اسمه شانهاف، بعضها يناقض بعض، وجُلُّ ما أجمعوا عليه، أن يصلوا معنا إلى اعتراف وإقرار، بأن التغيير والإصلاح وجه آخر لحماس. ولقد ناقض هذا الخبير نفسه في أداء شهادته، أمام القضاء العسكري، وقال: إنه ليس من الشرط أن تكون قائمة التغيير والإصلاح هي حماس، قلت لهم الآية: ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾¹⁸. لكن القوم، بشانهاف أو بدونه في غيهم سادرون، وهم يريدون تغييرنا تحت كل الظروف. وعلى الرغم من أنهم وافقوا على إجراء العملية الانتخابية في القدس وقراها، ووضعوا في بريدها الخاضع لسلطتهم صناديق الاقتراع، والشرطة هي من حملت هذه الصناديق ونقلتها، فإنهم ينقلبون على وعودهم ويعلنون الحرب. ولقد صبرنا على هذا الأذى، وقلنا لهم: هذه قائمة انتخابية فيها المسلم والمسيحي، ومن خلال الحديث الطبيعي الذي يديره ضابط التحقيق، وأعني ما أقول، من خلال الحديث وليس من خلال التحقيق؛ لأن حديثهم نابع من ضعف وعدم قناعة، وباهت في قوته. أما التحقيق، فظروفه قاسية وهو من الشيطنة بمكان، وكسر في كسر، فهذه المرة حديث لم يتجاوز ساعة من ليل الظالمين. وقد تعمدت أن أسأل الضابط المسؤول عن هذا الملف فقلت له: بشرفك العسكري، هل

¹⁷ انظر: ملحق الوثائق، الوثيقة رقم (23)، ص 537، ملصق باسم المجلس التشريعي الفلسطيني يطالب بإطلاق سراح رئيسه ونوابه، ويأتي ترتيب الشيخ أبو طير فيه الأول يساراً، تشرين الأول/أكتوبر، 2006. [المرح]

¹⁸ القرآن الكريم، سورة طه، آية 61.

أنت مقتنع بهذا العمل؟ وهذه التهمة؟ فأجابني: لا. وأذكر فيما مضى أن محققاً اسمه كرمل قال: "أنا مستعدُّ أن أحرق العالم من أجل الحقيقة"، بينما شابك اليوم في تهمة ضدنا، مستعد أن يحرق العالم، من أجل أن يكذب علينا. فنحن شكلنا حالة نادرة على القضاء العسكري، وقلت لهم من خلال المحاكم العسكرية، نحن ظاهرة أكبر من الاعتقال والتحقيق والمحاكمة، وأنتم تعاقبون الشعب الفلسطيني على خياره. وقلت لهم: هذا ملف سياسي أكبر من القضاء العسكري، وأكبر من النيابة، والنيابة تتخبط في هذا الملف. ولقد سبق لقاضٍ في الجلسة الثانية أو الثالثة للمحكمة أن قرّر الإفراج عنا لعجز النيابة في الأدلة، ولقناعته أن القضية لا تخضع لهذا المزاج. لكن النيابة استأنفت، والحاكم الذي قبل استئناف النيابة، ردّ على قرار الإفراج، ببيان سياسي لا شأن له بالقضاء ولا بالقانون.

الليلة واحدة بقينا في "عوفر"... ثم رحّلونا إلى سجن الرملة، ونزلنا في قسم قديم لشهر هناك. وجاءنا قائد المنطقة، واطلع على أوضاعنا، وطلبنا منه ملابس عن طريق الأهل فوافق. ثم جاءنا قائد مصلحة السجون، الذي ذكرناه أيام الإضراب عن الطعام، وسلّم علينا ومعه حاشيته، ثم قال: أين كلمة الشيخ أبي طير؟ ألم تعدنا بزيارة لبيتك؟ فقلت له: نعم، ولكن "الكابينت" الشورى المصغرة في جماعتي تحفظت على ذلك. ودار الحديث بيننا عن هذا الاعتقال وتداعياته، ومنهم من سأل عن شاليط، فقال قائد السجون: لو أن خالد مشعل يعرف أين شاليط لعرفنا نحن أين هو. وهذا كناية عن مدى السرية عند الخاطفين.

وبقينا نتردد على المحاكم، وأصعب ما في السجن هي أيام المحاكم، وسأتحدث عنها فيما بعد، وهم قوم يتفننون في قتل أيامنا، ويمطّون في قضايانا لأزمان طويلة، وجعلوا من اعتقالنا ورقة ضغط على إخواننا في غزة للإفراج عن شاليط. وقلت في المحكمة: إذا عاد شاليط إليكم، فسنعود جميعاً وبلا محاكمة إلى بيوتنا. وكنت كثيراً ما أستشهد بأمثال حفظتها عن أمي رحمها الله، فقلت لهم: "العبوا يا أولاد، واللعبة على أمكم"، وأترجمه لهم بالعبرية. ثم إنني كنت أنقل بين محكمتي عوفر وسالم في الشمال، وهي بالقرب من جنين؛ طلباً لشهادتي على إخوة لا علاقة لي بهم، ولكن لأني صاحب الترتيب الثاني على القائمة؛ فالمحكمة تفترض أن أشهد على جميع النواب ورؤساء البلديات، حتى الذين لم أكن أعرفهم، فزادت تنقلاتي عن مئة وثلاثين سفرية. وهذه رحلة يطول عذابها

ولثلاثة أيام، وربما لأسبوع، وأنا على سفر، ومن خلال وسيلة نقل مكتظة بخليط من الأسرى، منهم الأمني ومنهم الجنائي، ولا تخلو من الدخان والتدخين، وليوم كامل وأنا على متنها، حتى أصل إلى المحطة التي تؤدي إلى المحكمة، في اليوم الثاني، فألقي بنفسي على الفراش من التعب، ودون أن أغتسل من وعناء السفر. ويريدونني أن أشهد على الدكتور حاتم جرار، رئيس بلدية جنين، وقبل هذا الاعتقال لا أعرفه، فالدكتور حاتم من جنين وأنا من القدس، وكيف أشهد على رجل لا أعرفه، ولم يسبق لي أن ذكرته. فما وجه الشهادة في هذا المقام؟ إن كنتم تريدون محاكمتنا، فحاكموا الشعب الذي انتخبنا، اعتقلوه... ثم حققوا معه، وتوجهت إلي ضابطة في النيابة فقالت، بعد أن حذرني الحاكم العسكري من القول بغير الحقيقة، والحقيقة فقط: لماذا أنت هنا؟ لماذا أنا هنا، لأنني إنسان محترم، وذلك باللغتين العربية والعبرية، فعلى ماذا تحاكموننا؟! حاولت النيابة أن تسأل جاهدة وأنا صامتة لا أجيبها. حتى ضاق الحاكم العسكري من عدم جوابي، فأجبت قائلاً: هذا ملف لا صلاحية لهذه المحكمة أن تبت فيه، نعم، فزنا في الانتخابات، وكنا أكبر من مكرم، وتبين لكم أننا منجل فبلعتموه، ثم رفعت الجلسة.

نعم، كثيراً ما كنت أقول: نحن نريد أن ندخل هذه الانتخابات، ليعرف كل فصيل حجمه في هذه الساحة، وحتى يرى الشعب الفلسطيني والعالم العربي والإسلامي والدولي حقيقة الأمور في فلسطين، وحتى تنتهي سيمفونية التغني بالماضي الذي لم يحافظ عليه أبناء الثورة.

ونحن في سجن عوفر، في الساعة التي اعتقلونا فيها، قال لي ضابط هناك بلكنته الركيكة: "أنتم تغيير سلاح"، "مش تغيير وإصلاح"، قلت نعم: نحن تغيير وسلاح، وتغيير وإصلاح، وكما ذكرت رحلتنا ليلة 2006/6/30، إلى الرملة، وقلت: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وتنهدت بعدما تذكرت أنني قضيت 26 عاماً في السجون، وبكلمات: إيه يا عالم الظلم، إلهي سبحانك ما أحلمك!! سبحانك على حلمك بعد علمك!!

وإن كان لي تعليق على كل ما حدث أقول: إن السلطة بزعامة أبي مازن كانت قادرة على حل هذه المشكلة، بموقف واحد يأخذ طابع التهديد بالاستقالة، أو رسالة إلى الأمريكان، يخبرهم أنه في الطريق إلى حل السلطة؛ لأن الاحتلال اعتقل نوابه في التشريعي، لكنه كان راضياً عن ذلك، حتى يبقى الفراغ قائماً، وحتى تتعطل شرعية التشريعي. ومن

الأدلة على تواطئهم، أن المحامي وإخوة لنا طلبوا من صائب عريقات بروتوكول الاتفاق، الذي وقع مع الاحتلال بشأن الانتخابات في القدس، فماطل، وحتى كتابة هذه السطور عزّ عليه أن يعطيني لنا، حتى نواجه القضاء العسكري في حينه.

عادت الرتبة إلى السجن، ونفسي على الدوام أقوى من هذه القيود، وعندما تحضر زوجتي لزيارتي كنت أردد على مسامعها أبياتاً من شعر علي بن الجهم، وهو رهين السجن:

لا تجزعي إما رأيت قيوده إن خلاخيل الرجال قيودها

وذات مرة قلت لمدير السجن: والله لولا أن لنا في الله عزاء، وأن الله هو المعين على صبرنا ومحنتنا، لما صبرنا على مثل هذه الحياة. ولو كنا على طريق الملاحدة، لوضعت عياراً نارياً في رأسي وفارقت الحياة؛ لأنها لا تستحق هذا العناء، ولكنها في سبيل الله، وإنما الحياة في معانيها، ولولا ذلك فمن يطيق قهر السجان؟ ومن يطيق عربدته؟ مَنْ يطيق سفالة رجال ”البوسطة“؟ فإذا كان إمام النحلة سيوييه قد مات غماً لمجاملة على حساب حقيقة نحوية. ومن خلال هذه المحنة الطويلة أقولها والله مطلع على النوايا، والله ما ندمت، ولو للحظة واحدة، ما دام الأمر في سبيل الله، وإن ندمت يوماً، فندمي على لحظة لم أقاتل فيها عدوي، وعدو هذه الأمة. والله، ما تزعزت نفسي، وتنهَّد الأرض ولا تنهد نفسي أبداً، وكثيراً ما سمعها إخواني مني في المجالس وفي يوم الجمعة، أنه لو قُدِّر لي أن أعيش ما عاش نوح عليه السلام ما تعدى عمري النفسي ثلاثين سنة. وكان يعجبني الذي قرأته للأستاذ الرائد في التربية محمد أحمد الراشد وهو يقول: إنه في الخامسة والستين من العمر،

أخو سبعين مجتمِعٌ أشدِّي سني بروحي لا بعدي سنيني
فلأسخرنَّ غداً من التسعين عمري إلى السبعين يركض مسرعاً

والروح ثابتة على العشرين

في سجن الرملة هذا، وقد نزلنا ما يسمى ”المبار“، جاءنا قرار نقل إلى سجن نيتسان، وهو واقع في محيط سجن الرملة، واستقبلنا ضباط السجن، وهم من بني معروف من الدروز، ولكنهم يختلفون عنم ذكرناهم سابقاً، فبلطف واحترام استقبلونا وتعاملوا معنا، وكان منهم نائل عبد الله، ضابط عدد، واحترامه لنا فيه حياء. وأعرف أخاه من

قبل، وكنيته أبو عبد الله ماجد، وهو على قدر كبير من الاحترام. وكان فيهم دون رتبة الضباط، ولا أنسى معاملتهم الحسنة معنا، وهم جهاد فلاح، ويوسف طعمة، وأجود عزام، والضابط كمال سلامة، والمرضى إياهم قزل. وفي هذا القسم زارنا مدير مصلحة السجون نفسه، وكان برفقة وزير الأمن الداخلي حينها آفي ديختر Avi Dichter، ودخل علينا الغرفة، وتعرف علينا، وزارنا إخواننا النواب في الكنيست الإسرائيلي، فالاحترام هو الحاضر، وأما التصنع والتكلف فلا يعمران. وأحياناً، لا يجدي الحوار ولا الاحترام، إذا ما تجاوزت إدارة السجن حدود المألوف، فلا بد من موقف فيه تشنج. وكما ذكرت فمن الناس من لا أنسى موقفه الإيجابي معي، ومع الأخ أبي مجاهد عطون، كالضابط كمال سلامة، الذي تميز باحترامه وحسن سلوكه، إثر مهاجمة سجين منّا على ضابط في عدد الصباح، بشفرة حادة نالته بأذى في رقبتة، وصارت "دماياه حماياه" كما يقال. فالضابط كمال شكّل لنا حماية أدبية، وجعل في معاصمنا على راحتها ثم جاء يهودي فشدّها، وبفعلها هذا السجين، تميزت الإدارة غيظاً، وكانت الهجمة السيئة التي أتت على كل شيء، وكان ذلك في 13 رمضان 1428هـ، الموافق 2007/9/23. واستنفرت إدارة السجن، ومن ورائها مصلحة السجون، وعاقبت 200 سجين أمني بجريرة هذا الحدث، وألحقت أضراراً نفسية ومادية وجسدية بالأسرى، وسحبت الأدوات الكهربائية، من تلفزيون وهوايات وبلاطات للطبخ. وأخرجت الأسرى وقيدتهم بالقيود البلاستيكية، وجعلتهم يجلسون القرفصاء لساعات طويلة، ووجوههم على الحائط. وأتت على كل شيء، وخطت الحابل بالنابل، وصادرت المأكولات والقهوة والشاي، ولقد أوجعونا لأيام بالقيود البلاستيكية، وآثارها الموجهة لم تنته. ولما جاء المدير بعد كل هذه الإهانات والاستفزازات، يريد الحديث معنا، وقفت له وقلت: هل أبقيتم على شيء حتى نتحدث؟ لقد قتلتم الاحترام، وما أبقيتم على شيء، لقد قيدتمونا كالدواب، وجعلتم منّا حديقة حيوانات، وتتلدنون على مصائبنا. عاقبوا المهاجم... أما أن تعاقبوا قسماً كاملاً فيه 100 مجاهد، فالعقاب الجماعي مرفوض. أنتم قوم لا تحترمون التوراة التي تتعبدون بها، والله سبحانه وتعالى يقول عنكم: ﴿وَكُنَّبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾¹⁹، ولكن، هم في وادٍ والتوراة في وادٍ.

¹⁹ القرآن الكريم، سورة المائدة، آية 45.

و ذات ليلة تعرضت لوعكة صحية، فجاءني ممرض من بني معروف (الدروز) اسمه سامر، وأخرجني من الغرفة إلى عيادة السجن، وبصحة ضابط اسمه علي، ومعه من الحراس جهاد وأجود، وأجروا لي فحوصات طبية وشكرت لهم ذلك. وخرجنا من هذه المحنة على يد مدير آخر كنت أعرفه سابقاً، وهو شلومو رويمي، وعالج الموقف سريعاً.

وفي القسم الذي نزلنا فيه أولاً، بعد "المبار" وقبل الاعتداء على ضابط العدد، أجرت إدارة السجن تفتيشاً بعد صلاة الصبح مباشرة. والتفتيش جرى لغرفتنا لظن إدارة السجن أن عندنا هاتف محمول، والصحيح أنه لا وجود لذلك عندنا، بل كان موجوداً عند الأخ رمزي عبيد من فتح. وكان ظن المدير وضابط أمنه أنه لا يمكن أن يعيش الشيخ أبو طير بلا هاتف محمول، ففتشونا تفتيشاً سيئاً إذ جردونا من ملابسنا، فخرجت من غرفتي إلى قاعة أعدت لنا وقت التفتيش، خرجت غاضباً، ووصل احتجاجي لمدير السجن وضابط أمنه، وهو من الدروز. فجاء الاثنان حيث كنا والتفتيش على قدم وساق، وتحدثت للمدير بقسوة، وقلت له: أنت لا تحترم نفسك، فقال لي ضابط الأمن: شيخ، هذا المدير، فقلت له ثانية: مديرك لا يحترم نفسه، وإلا كيف يسمح بمثل هذا التفتيش. وكان إخواني يسمعون ما أقول، ومنهم النائب الدكتور إبراهيم أبو سالم، والنائب أحمد عطون. كان ذلك يوم 2006/11/16.

وجرى تفتيش غرفة الأخ رمزي عبيد، ووجدوا الهاتف المحمول عنده، وقلت لضباط الإدارة، وأنا صادق فيما أقول: أؤثر أن أعيش عمري بلا هاتف محمول، ولا أن أتعرض لـ"بهدة [عقوبة]" الإدارة.

وفي القسم نفسه من سنة 2006، جاءني خبر وفاة الوالد رحمه الله، كان ذلك يوم الإثنين 2006/11/27، وعمل المحامي كي أحضر الجنازة، لكن مصلحة السجون رفضت، وبعدها جاءني مدير مصلحة السجون وقدم لي العزاء، وكذلك الإخوة في السجن قاموا بالواجب، والحمد لله رب العالمين.

كنا في هذا القسم أسرة واحدة، حماس، وفتح، والجهاد، والشعبية... كل هذه الفصائل يعيش بعضها لبعض. وكان ممثل المعتقل كمال أبو شنب من فتح، لكنه كان لا يقطع أمراً إلا ويرجع إليّ أو للأخ أبي مجاهد، وكان يتعامل معي كأني والده. وكان الإخوة رمزي عبيد، وإياد الفروخ، وناصر عبيات، وياسر أبو ترك وهم من فتح،

وكانهم إخوتي وأبنائي. وكان الأخ مراد النجار من فتح يعمل في الـ"مردوان" ويوزع الطعام والخضار على جميع غرف السجن فتح وحماس والجهاد والشعبية دون تمييز، يا الله ما أعظم الاحترام!! وكنت أقدمه على شباب من حماس. وكان شباب من الجهاد الإسلامي من خيرة الناس، كانوا روعة في الكرم والاحترام، منهم داود الشواورة، وسلامة وعدنان وأبو خليل وأيوب العصا. ومن الشعبية مجدي ارحيمي (أبو السائد)، والذي هو قمة في الوعي والنضج، وعاش الماركسية بالحادها... ثم يريد الله به الهدى واليسر ويقدر إحاطته بالماركسية، أبدله الله بأكثر مما كان يتمناه من الهدى. وكان فضل الله عليه كبيراً. ولقد سبق أني التقيت رقيقاً وأخاً كريماً من الشعبية اسمه مؤيد عبد الصمد، ومشهور بين الأسرى بـ"الشيص"، ووفقني الله بعلاقة طيبة معه، وأظنه لا يقطع الصيام في رمضان، وكان يقرأ القرآن. التقيته كثيراً في عسقلان، وعشت وإياه في غرفة واحدة، ويتميز بأدب عجيب، وخلق ممتاز، وهو من عنبتا. وكتب لي رسائل وقصيدة من الشعر، سأقوم بنشرها إن شاء الله. أما الحبيب أبو السائد مجدي فترك الشعبية، وانتمى لحماس، وهو يعيش مع إخوانه في نفحة، وهو من المجموعة التي قتلت الوزير الصهيوني رحبعام زئيفي Rehavam Ze'evi.

ومن أحداث هذا القسم، وقد آليت على نفسي ألا أعمل في التنظيم، ما دام فيه من يتولى الأمور ويقوم بالواجب، لكننا نسدد ونقارب، وننصح لإخواننا العاملين. وكان على التنظيم حينها الإخوة النائب أنور الزبون، وحمزة زهران، وأحمد بديع، وهم من خيرة الرجال... لكنهم هذه المرة في سياستهم للتنظيم يريدون أن يدفعا الأمور إلى المواجهة مع إدارة السجن، ومن ثم يجرون السجن إلى حسابات خاطئة. واستدعيت للتدخل، ووقفت على باب غرفتهم فقلت لهم: إلى أين أنتم ذاهبون؟ أنتم تريدون أن تورطونا، وتورطوا السجن بفصائله الأخرى، إلى وضع مأزوم، وهذا عواقبه غير محمودة. قالوا ما المطلوب وقد أصروا على موقفهم؟ قلت: المطلوب أن تسلموا العهدة، وأسأل الله أن يعطيكم العافية. وفعلاً قالوا: رفعنا أيدينا، والأمر إليك. فشكلت لجنة، وأجرينا انتخابات جديدة، وتصرف الأخ النائب عطون مع إدارة السجن والتنظيمات إلى أن جرت الانتخابات، وقد دخلناها وأفرزت كلاً من الإخوة النائب الدكتور إبراهيم أبو سالم، والنائب أحمد عطون، ومحمد أبو طير، والأخ بلال عبد ربه. ولا أدري من الخامس وسارت الأمور على خير والحمد لله.

ليلة المحكمة ويوم المعاناة:

”اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت إن شئت تجعل الحزن سهلاً“ بهذا الدعاء لنبينا محمد ﷺ انتظرت ليلة المحكمة، لما لها من هموم، ومن ظلال تنوء بحملها والصبر عليها الجبال. هذا الدعاء فيه من الندى ما يُثلج الفؤاد ويقرُّ النفس، لعله يخفف عنا المعاناة ليوم اسمه ”البوسطة“، فمن الساعة السادسة صباحاً توضع القيود في رجلك وفي معصميك، ولا تفارقك عند الأكل والصلاة، أو الذهاب إلى دورة المياه، أو وأنت جالس في قاعة المحكمة، إلى أن تعود ليلاً قريباً من العاشرة مساءً إلى غرفتك في السجن الذي أنت فيه. وعلى هذه ”البوسطة“ فرقة اسمها ”النحشون“²⁰، رجالها غلاظ القلوب، مشبعون بالفحش والفجور، محرومون من الرحمة، وكثيراً ما اعتدوا على الأسرى وكسروا لهم أسنانهم. وعند التفتيش ولا نحمل معنا شيئاً إلا أوراق التواليت التي يحتاجها الأسير إن كان مريضاً بالإنفلونزا أو ”نزلة البرد“ ثم يصادرونها ويلقون بها أرضاً. وأنت مكبل في معصميك ورجليك يطلبون منك أن تخلع الحذاء والجوارب، ثم تعود إلى لبس ذلك. فالجميع كانوا يستجيبون، وما كنت لأستجيب لهم، وأطلب منهم فك القيود إن أرادوا أن أخلع نعلي، ويتدخل الضابط ويأخذني جانباً، وبلباقة منه لا أفتش حتى لا يطمع بقية الأسرى في فرقته. إنه يوم ثقيل وطويل في تفاعلاته التي هي أطول من تفاعلات البحر الطويل. وانتظره بعد ليلة حبلى من الهموم، أراقب لحظاتها وأنا في محراب الصلاة، وأناجي الذي بيده الأمر، والذي يكور الليل على النهار. أناجيه بإشفاق وأدب أن يخفف عنا ما نحن فيه، وأن يتكرم علينا ويكتب لنا الأجر، لعل هذه الأوجاع تكون لنا فكاكاً من حشر يوم القيامة، لأنه لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم، ولا تجتمع قيود السجن مع سلاسل جهنم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جلّ وعلا أنه قال: ”وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيام“²¹، ولعل هذه الأوضاع فيها البراءة من محكمة يوم القيامة، حيث:

²⁰ يحدد نحشون: وحدة عسكرية صهيونية خاصة من جنود جيش الاحتلال الذين تلقوا تدريباً خاصاً على التعامل مع الأسرى، وهي الوحدة المكلفة بعمليات القمع والتنكيل داخل المعتقلات، والنحشون في العبرية تعني الأفعى. انظر: فهد أبو الحاج، مرجع سابق، ص 64.

²¹ لنص الحديث وتخريجه انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الحديث رقم 2666. [المحرر]

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾²² صدق الله العظيم.

بهذه النفسية، التي لا يحيط بهومها إلا من كابد حرَّ القيد على يد بطانة العجل، ومن قاسى ضررها يعرف حجم المعاناة. ولقد كنت أقبل على نفسي زيادة في الحكم، ولا جرجرة ”البوسطة“ ومقاهرة رجالها. نعم، زيادة في مصيبة دون مصيبة الافتراء من النيابة مع عجز المحامي أمام خصومك. فالنيابة العسكرية ومن ورائها المخبرات هم من يُحدد حكمك... وليس القاضي، ولقد اجتمع عليّ في محكمة اللد العسكرية سنة 1999 النيابة ورجال المخبرات ليملوا على القاضي ما يريدون.

بهذه الروح الصابرة، كنت أنتظر ليلة المحكمة، و”بوسطة“ النقل العجيبة... المحكمة في إغلاقها، وفي ظروفها الأمنية وإجراءاتها التعسفية، وفرقتها المدججة بالسلاح يصلون إلى عشرين رجلاً. ولها شبابيك مخرمة وعالية، ويصعب عليك وأنت في القيود أن تقف لتشاهد الفضاء والجبال التي على الطرقات. وإذا قصد السائق أن يفرمل، ويكبح الجوامح يتوجع الجالس، ويتردى الواقف. وعصابات ”البوسطة“ من النحشون يعلو صوتها بالصراخ والزجر، اجلس، اجلس... يمنعون عليك أن تغذي عينيك بالمنظر الطبيعية، أو أن تتنفس الهواء النقي. وإذا ما وصلنا غرف المحاكم يحلو لبعضهم أن يخلو بك لتذوق منه علفة.

نعم، إنها سيارة ”البوسطة“ التي تحملنا إلى ساحات الظلم... إلى المحاكم... محاكم الزور والبهتان. في يوم تهترئ فيه الأعصاب، يوم طويل لحظاته ساعات، وساعاته معاناة لقلوب موجوعة تبدأ بعد صلاة الفجر ومع طلوع الشمس، وأحياناً قبل صلاة الفجر، وما إن يبدأ حتى تتمنى لو ينقضي، فأنت تستعجل الدقائق، وتستعجل اللحظات، وتتمنى أن يرحل النهار سريعاً حتى وإن لم يلحق بنا الدور في قاعة المحكمة، فلکم تكون فرحتنا! ولکم نشعر بالراحة إذا عدنا إلى إخواننا في السجن!

الله أكبر، ثم الله أكبر واستشعر معي هذا التكبير وهذا التعظيم، أن تعود للسجن راحة بعد المعاناة، وشعور بالفرح كأننا عائدون إلى بيوتنا.

أقيام الساعة موعده

يا ليل: السجن متى غده

²² القرآن الكريم، سورة الأنبياء، آية 47.

إنه يوم طويل، وإنه همٌّ ثقيل، وإن الطيور في أعشاشها قد ضاقت ذرعاً من ظلمكم أيها الصهاينة، فهذا اليوم لا ينتهي إلا بنهاية هذه الدولة. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾²³، وكم تمنينا أن تقام لنا المحاكم في باحات السجون، حتى نرتاح من هذا اليوم.

نعم، من الساعات الأولى، ومع عدد الصباح، تحيط بنا القيود وظلال العريضة، والقيود و"الكلبشات" تلقي بثقلها على حركتنا، وتنتقل عدوى الألم والجراح من الجسد إلى النفس، وكثيراً ما تأكل من جلودنا ويسيل الدم. وهذا هو قهر الاحتلال، فمنذ الصباح مرة أخرى، وإلى أن تتسلل عتمة الليل والقيود تلهب معاصمنا وأرجلنا، والأنكى، هي زنازين الانتظار في المحكمة، وعليها زبانية لئام، وهي لا تصلح إلا لهم، ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾²⁴. وهذه الزنازين لا يزيد طولها على عرضها (240 سم × 240 سم × ارتفاع مترين). ولكل زنزانة بابها الموصل، إلا من نافذة صغيرة، بالكاد تستطيع أن تأخذ طعامك منها، وإنارة باهتة، وبدونها لا سبيل للرؤية، ويحشر فيها ثمانية عشر رجلاً لا يستطيعون الحركة، فأنت مقيد بالقيود، ومقيد بهذا الضيق الذي يمنحك من الحركة. وإذا أقمنا الصلاة فالجمع والقصر أولى، والركوع والسجود على ظهور بعضنا ومنا من لا يتمكن.

أما شتاء الزنازين، فزمهير، والبرد قارس، فموقع المحاكم قطعة من صقيع رام الله، وعن البرد في رام الله حدث ولا حرج. وزبانية "البوسطة" لا يسمحون لك أن تتزود بالملابس الداخلية الشتوية من شدة هوسهم الأمني، لا يسمحون بأكثر من بنطلون ترتديه، ولا يسمحون لك بملابس داخلية طويلة، تقيك من برد الشتاء. والزنازين في الشتاء ثلاثة، وأي ثلاثة؟ ومن هنا يأتيك المرض. فهذا البرد مع صقيعه ينهشان جسدك، بل لا تستطيع أن تتكئ على حائط الزنزانة، لشدة بردها وما يرشح منها من ماء وبرد. ولا تستطيع الجلوس على الأرض، أو على المقاعد المصنوعة من الباطون من شدة صقيعها. وكيف بك أن تتحرك؟ لتخرج من برودة المكان، لعلك تبعث بالدفع إلى شرايين قلبك؟ لأن فرائصك ترتعد من البرد، وحشاشة قلبك ترقص وتتلوى من البرد، وأضراسك في فمك يصك بعضها بعضاً من شدة البرد.

²³ القرآن الكريم، سورة الروم، آية 4-5.

²⁴ القرآن الكريم، سورة الشعراء، آية 152.

وأما الصيف، فحرُّه شديد، وأنفاس مَنْ في الزنزانة تزيد من حرارة الجو، حتى تصل إلى الاختناق، ويقف منا مَنْ يخلع عنه قميصه، ويدور به كالمروحة لتغيير الهواء، وتلطيف الأجواء. ومنا مَنْ يضع أنفه على النافذة الصغيرة، لعله يُبرد عن روحه. وفي كلتا الحالتين، صيفاً وشتاءً، لا يُفتح باب الزنزانة إلا عند الخروج للمحكمة أو الرجوع منها، ومرتين في النهار لدورة المياه، وذلك على المقاس ولا يزيد. في الصيف، ترى الجدران تسيل وتتصبب عرقاً من حرارة الأنفاس... إبي والله، ومنا من لا يشرب ولا يأكل، ومنا من يأتي صائماً حتى لا يضغته البول، وحتى لا يقع تحت رحمة هؤلاء السفلة.

وذاث يوم، ونحن في طريق العودة من المحكمة إلى السجن، وعن قصد هذه المرة، حجزونا في مؤخرة الباص، التي قسموها إلى زنازين عن اليمين وعن الشمال، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يأخذ راحته، لا في الحركة ولا في الجلوس، إذ الاكتظاظ والتضييق هما سيدا الموقف، ومع ما أنت فيه من القيود والسلاسل، التي تمنعك من أن تمسك بشيء حتى لا تقع، أو تحول دون النجاة إن ألمت بنا مصيبة.

وهذا ما حصل معنا عندما وصلنا إلى سجن الرملة، والطريق قبل الوصول إليه فيها ”مطبات“، حتى تحول دون سرعة السائقين. لكن سائق حافلتنا، مرة ”يفرمل [يضغط على الكوابح]“ ومرة يسرع، حتى إذا ما وصل إلى المطبات أسرع، فإذا برؤوسنا ترتطم في سقف الحافلة، وكل ظني أن شيئاً من السماء سقط علينا. ولم يبق منا واحد في موقعه، وإذا بي ملقى على أرض الحافلة، لا أستطيع حراكاً، ولا قدرة لي على الوقوف أو الجلوس، وذهب بي الظن أن عمودي الفقري أصيب. وسألني الدكتور محمود الرمحي، إن كان في رجلي خدر، لكنني كنت عاجزاً عن تحديد أي شيء، وعلى الرغم من أن الأسرى علت أصواتهم احتجاجاً، طالبين العلاج، لكن دون جدوى، ولم يلتفتوا لأن الأمر لا يعينهم.

كان الألم شديداً، ولما نزلت من الحافلة أمسك بي أخوان، حيث لا قدرة لي على اعتدال قامتي، وأتوكأ في المشي على أخويّ. فلا رجال ”البوسطة“، ولا عيادة السجن اهتموا بالأمر، ولم يعرضوني على طبيب، وكل ما في الأمر أنهم أعطوني مسكناً للوجع.

وصلت إلى غرفتي وأنا على هذه الحال، وسلواي عاطفة إخواني، والعلاج الوحيد هو حمام الماء الساخن والأدهان بزيت الزيتون... وصلاتي جلوساً على الكرسي. وبقيت على هذه الحال ثلاثة أسابيع دون أن أتعافى جيداً.

هذا الإجماع عن نية مبيته وعن قصد، وفي العادة أننا نأخذ مواقعنا في مقدمة الحافلة، وفيها متسع، لكن الحمد لله على كل حال، وإنا لله وإنا إليه راجعون. إنه الظلم... ظلم الصهاينة، وهم مهرة في التضييق على الناس، ويتلذذون بالحركة الرخيصة، والأصوات الصاخبة. وهذه ورثوها عن أصحاب السبت، وكأن السبت الذي احتالوا على الحيطان فيه، أبقى على سلالة وصلت إليهم. وإنهم مع الاحتيال كذبة، بالرغم من ما لديهم من رصيد قوة منتفخة. ولقد بلغ بهم الظلم والحقد أن ضربونا بالغاز ونحن في سيارة "البوسطة"، وحتى في زنازين المحكمة. فمدافع الغاز التي يبطشون بها، هي أرحم من قلوبهم، فهم لا يراعون عجزك ولا القيد الذي في رجلك ومعصميك، وإن كنا بإيماننا أقوى منهم، فإنهم يخافونك وأنت مكبل بالقيود. وبالرغم من أنك تختنق من الغاز وتحترق، ويلفح وجهك ويلذعه، فهم على خوف منك. ولقد شاهدت بأمر عيني كيف احترقت الأرض... أرض الغرفة وأرض الساحة من هذا الغاز، فكيف بالبشر؟

ووالله، لقد مرت أيام وأعوام، والرائحة على أبواب الغرف التي نقيم فيها... فرائحة الغاز تفوح من بين ثنايا حديد الأبواب والنوافذ. وبلغ بهم الأمر أن يضربوا قنابل أوكسجين، حتى يخففوا من حالات الاختناق، لكثرة ما ضربوا بعض السجون بالغاز. وبينما نحن على هذه الحال من الهموم، وإذا بالأخ النائب عن أريحا والأغوار الأستاذ علي رومانين، يرجع إلينا من المحكمة بخبر يحمله أدخل السرور على نفوسنا... وهو أن سلطات الاحتلال أفرجت عن الشيخ صالح العاروري، فحمدنا الله على ذلك، وسجدت لله شكراً. ودخل السرور والفرح على باقي الإخوة في الزنازين وفي السجون الأخرى، فرضى الله عن الشيخ أبي محمد، صاحب الهمة العالية.

هذا يا أخي يوم "البوسطة" ويوم المحكمة، مع فرقة النحشون، التي ترافق الأسرى إلى المحاكم كل صباح، وتعيدهم حطاماً إلى سجونهم كل مساء، ولهم نفوس شحيحة على الخير، وقلوب شداد غلاظ، وتصحبهم على الدوام كلاب، استمدت شراستها من شراستهم.

بين روابط القرى وأوسلو:

روابط القرى ولى زمانها. لكن السبب الذي دفعني إلى التحدث عنها، هو مشروع أوسلو، لأن الترددي الذي انتهت إليه جماعة أوسلو، لم يسبق لروابط القرى أن تردت

إليه... فروابط القرى فاصلة زمنية لصيقة باتفاقيات كامب ديفيد، فهي من أرضية الجهل والعمالة انطلقت، وكان ضعف المنظمة، على صعيد العمل العسكري داخل الأرض المحتلة، سبباً في ظهورها... فالمنظمة بقدر ما كانت دولة بإمكانياتها في الخارج، بقدر ما كان جناحها العسكري مهيباً في الداخل.

ولما خرج السادات على الأمة باتفاقيات كامب ديفيد الرخيصة، وقد نجح كيسنجر كما قال: بإخراج الحوت من البحر. كل ذلك مهدّ لهذه الطحالب أن تنتشر، فكان ظهورها بعد رحلة السادات إلى القدس، خلال سنوات 1979-1981. وما هي إلا ثلاث سنوات، حتى انفرط جمعهم بعدما حاولوا أن يفرضوا أنفسهم، كظاهرة قابلة للاستمرار، ولكنهم حالة اتكأ عليها الاحتلال إلى حين.

إن روابط القرى لم يكن لها رصيد نضالي، ولا تأييد جماهيري. بل هي فاصلة زمنية باهتة، من تاريخ القضية الفلسطينية، وبقدر ما حاولت أن تطرح نفسها بديلاً عن الثورة الفلسطينية، بقدر ما انتكست وارتكست، وانطوت على نفسها، حتى وإن جعجت. وإن خروج مصر من حلبة الصراع، على أثر كامب ديفيد، وبقاء المنظمة تراوح مكانها، واشتداد حدة المؤامرات على القضية والثورة، كل هذا يجب ألا يفت في عضد الثوار، أو أن يغفلوا عن حركة التاريخ، أو أن يسمحوا للبوصلية بالانحراف عن وجهتها. فمن الصحة للثورة أي ثورة، وللحركة أي حركة، أن تتأقلم مع حالات المد والجزر... ولكن لا يستساغ بتاتاً أن يخضع المد، لمزاج الثوار على حساب الثوابت، ولا يجوز لحالة الجزر أن تنال من عزيمة الثوار، فتتحكم بهم الإغراءات.

أما قوات لحد، فلها جذور قبل أن يجتاح الاحتلال الجنوب اللبناني سنة 1982، حيث كان الضابط في الجيش اللبناني سعد حداد، قد أعلن تمرده على الدولة اللبنانية بدعم من "إسرائيل". ثم خلفه الضابط أنطوان لحد، بعد الاجتياح، وأخذ يصول ويجول، ممتطياً ظهر الخيانة والعمالة، مدة ثماني عشرة سنة، إلى أن ركله باراك بقدمه بانسحابه من الجنوب سنة 2000، فانتهى بدون "شحنة قلم"، ومن الطبيعي أن تكون هذه نهايته.

أما أوصلو، فلا "يشقع ولا يرقع" معها، لا روابط القرى ولا جيش لحد، فأوصلو مشروع صهيوني بامتيان، قائم على خدمة أمن الاحتلال، بشرعية شعاراتها الوطنية، وقد قال أحدهم: "بعنا القضية بـ 400 بطاقة في أي بي V.I.P" (شخصية مهمة جداً).

روابط القرى سلّحها الاحتلال، والوحيد الذي كانت من وراء قتله هو الحاج محمد عفانة من قرية تلّ قضاء نابلس. أما عصابة أوصلو، فـ”إسرائيل“ سمحت لها بإدخال السلاح لقمع المقاومة، وتحجيم كل من يخرج على أوصلو بكل السبل، بالسجن والقتل والطرده من الوظائف، وإغلاق الجمعيات الخيرية، والفصل الوظيفي على خلفية الانتماء، والمسح الأمني. وكم من مجاهد قتلوه! وكم من طريد سلّموه! وكم من عائلات روعوها باسم الوطنية! فما الفرق بين السلاحين؟ سلاح روابط القرى، وسلاح أوصلو؟ وذات مرة في التحقيق سنة 1998، أخذوا مني مسدساً، فقال لي المحقق: مسدسك في الأمانات، وعندما تخرج نعيده لك. فقلت له: إن رجع لي بإذنكم ”بطلّ“ [لم يعد] مسدساً، بل أصبح جاسوساً.

وقبل أوصلو، خرج علينا أبو عمار بإعلان الاستقلال، وأي استقلال هذا؟ وأين وصل؟ وأين هو اليوم؟ وكأن الاستقلال يُعطى ويقدم على طبق من فضة!! ورُبّ قائل يقول: قدمنا الشهداء، وأعطينا الدماء من أجل هذا الاستقلال. والسؤال: أين هو؟ وأين الوفاء؟ من منكم يتحرك إلا بإذن من دولة الاحتلال؟ حتى أبو عمار، رحمه الله؟ يا جماعة أوصلو، ديفيد بن جوريون David Ben Gurion لم يُعلن الاستقلال لدولته إلا بعدما تمكن بقواته! من فرض الأمر الواقع، واحتلال ثلثي فلسطين، وما انتظر من الفلسطينيين، ولا من العرب، ولا من العالم أن يعترفوا به، إلا لما أصبحت دولته قائمة. لا نريد أن نأتي على ما سبق أوصلو من المشاريع، لكن ما بعد أوصلو، كم من تهديد لأبي عمار تلتته تهديدات، ألا يعلن عن قيام دولة فلسطين؟ واليوم هذا الوهم الذي انتظر في أيلول/سبتمبر، أو ما يسمى ”استحقاق سبتمبر“، لم تسمح به ”إسرائيل“ وأمريكا؟ ولن يسمحوا بذلك أبداً؛ لأن قيام دولة فلسطينية، هو المقدمة للقضاء على دولة الاحتلال، وفيه تحجيم للاستيطان... بل ونهايته، ودولة فلسطينية بلا القدس ليست بدولة، و”إسرائيل“ من المستحيل أن تتخلى عن القدس إلا إذا اختلت موازين القوى في المنطقة لغير صالحها.

أما أوصلو، فما الذي أتت به أوصلو؟ أوصلو فجرت الساحة الفلسطينية، وأثارت حفيظة الفصائل فيما بينها. فبينما كانت على انسجام، ولو ظاهرياً، في أثناء مقارعة العدو، وتنافست في تسليح أجنحتها لمقارعة الاحتلال. ثم أصبحت في ظلّ أوصلو لا همّ لها إلا تصفية الحسابات، ولأجندات تستفيد منها ”إسرائيل“ وأمريكا.

لقد نقلت أوصلو إلى الساحة الفلسطينية تسعة أجهزة أمنية، وجميعها على خلاف، ويتربص بعضها بالآخر الدوائر. بعدما كانت الفصائل، تعتمد على الشارع في حضورها وحجمها، وتكتفي بما عندها من أجنحة عسكرية، تعرف إلى أين تتجه بوصلتها. وبحضور هذه الأجهزة، بدأ الصراع على أشده فيما بينها، للسيطرة والتجنيد لبسط النفوذ. وبدأت هذه الأجهزة ترهق المواطن، باعتداءاتها على خصوصياته، وفي بناء مؤسساتها التي شيدها، وتناولوا في بنائها على حساب الورشات الخاصة.

لقد شكلوا "عصابات"، فاعتدوا على البيوت والمحلات... والحرمات.. وما غازي الجبالي عنكم ببعيد، فقد عرض جيش الاحتلال عندما استولى على بيته في رام الله، ومركز قيادته للشرطة، عرض على شاشات التلفزة مسروقات من الذهب والمجوهرات...

وأوصلو كما فجرت الساحة على صعيد الأجهزة، فقد فاجأت الدنيا، بفرضها على منظمة التحرير فرضاً، ومن خلف ظهر فريق المفاوضات في مدريد، مستغفلةً شعبنا الفلسطيني وفصائله. فلا حماس ولا الجهاد الإسلامي، ولا الشعبية، ولا الديمقراطية، ولا القيادة العامة، ولا أبو اللطف رفيق درب أبي عمار، ورئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير في حينها قبلوا أوصلو. ولم يرتض بها سوى عرفات، والمتزلفين من حوله، والسؤال هل عرض عرفات وفريق أوصلو هذا الاتفاق على الشعب الفلسطيني، حتى يقول كلمته فيه؟ والجواب واضح وغني عن التعليل.

أما دولة الاحتلال، وهي من خرّجت اتفاقية أوصلو، فقد عرضوها على الكنيست الإسرائيلي، ووافق عليها، وحتى المعارضة فيما بعد، لما تسلمت الحكم، التزمت باتفاقيات أوصلو من نتنها هو إلى شارون.

14 حزيران/ يونيو 2007 يوم الإكراه والاضطرار:

2007/6/14 يومٌ مرير على صعيد القضية الفلسطينية، بل هو يوم إكراه واضطرار... اقتضى علاجه بعد أن عجزت الوفود والعهود أن تضع حداً لهذه الفوضى من الانتاج الأمريكي، ولهذا الفلتان الذي استفحل شره بالقتل والتصفيات، والاعتداء على الأعراض، على أيدي عصابات الوقائي، وفرق الموت التابعة له بقيادة محمد دحلان، ونائبه رشيد أبو شباك.

إنه يوم إكراه واضطرار، كاد الفلتان الأمني يقوِّض المقاومة، ويورد الساحة الفلسطينية إلى ساحات حرب أهلية، نذرنا أوشكت أن تبيض وتفرخ، ولاح أفقها، لولا أن اقتضى الأمر، أن يدفع المغلوب عن نفسه، وقد حصد القتل خيرة أبنائه. بما لم يدع مجالاً للصبر... أن يصبر على هذا الأذى، أو لمن توسد الأمر أن يخون أمانته، أو يتنكر لدوره في الحفاظ على السلم الاجتماعي.

وإنه يوم إكراه واضطرار، فرضته إفرانات أو سلو على ساحة الوطن... التي لم تعهد هذا المنطق، والتي كانت في غنى عنه، لولا أن انتقلت عدواه إلينا من الساحة اللبنانية، على أيدي قادة الأجهزة الأمنية، والتي تعودت على أن تحتكم إلى السلاح في فضّ الخلافات بينها. وهذا ما دأبت عليه منذ أن دخلت إلى أرض الوطن، سنة 1994، والشواهد على ذلك كثيرة، أهمها مجزرة مسجد فلسطين.

بل إنه من الضروري عندما يغيب الأمن عن المواطن، ويطغى منطق القوة وقهقهة السلاح، على حساب السلم الاجتماعي، أن يذود المسؤول عن هذا السلم، والذي تمثل يومذاك في حماس وحكومتها، وأن ينتصر صاحب القرار لأمن المواطن، وأن يلجم طغيان المنطق الذي ورث هذه الساحة أوجاعاً وأوضاعاً يصعب أن تتعافى منها، أو تتحاشاها.

ولقد خُلف هذا المنطق، انقساماً سياسياً واجتماعياً... امتد شرخه سنوات كانت كافية أن تهدئ الخواطر، وأن تُدمل الجراح، وأن يفرّج عن شعب مبتلى، والذي لا يمر عليه يوم بلا اعتداء من آلة البطش الصهيونية، التي تخلف الدماء والأشلاء والخراب، ناهيك عن الفقر والبطالة. لكن الفيتو الأمريكي، وتواطؤ النظام العربي، وفي مقدمته نظام حسني مبارك الهالك، وتهافت سلطة أو سلو وخضوعها للإملاءات، جعل الانقسام حقيقة واقعة.

وعلى الرغم من أن المصالحة، التي طال انتظارها تمت بحمد الله، إلا أنها عرجاء تراوح مكانها، بسبب النوايا المترددة والحائرة، إن لم تكن خائرة، وبسبب طغيان المشروع الأمريكي، الذي كان يجري تنفيذه عبر سلام فياض، والذي جعل من الأخضرين (ظهور راية حماس، واختفاء دولار أمريكا) بُعبعاً مربعاً للفتحاويين، والمنتفعين من الانقسام، وعلى وجه الخصوص الأجهزة الأمنية، التي ترى في المصالحة عدواً لها. ولا تريدها أن تنجح أو أن تتعافى، من تداعيات هذا الانقسام.



وعلى الصعيد السياسي، الذي تغذيه آلة إعلامية لا ترحم، ولها خطاب نارِي لا يهدأ، بل يُلهبُ الساحة سخونةً أكثر من حرارة الدماء التي نزفت. شكّل هذا الانقسام تمادياً في القطيعة، وأرهب جناحي الوطن نفسياً، وجعله عالمة على فتات أو سلو، مقابل استحقاق أمني تقوم به السلطة، لصالح دولة الاحتلال.

إن هذا الانقسام أرهب الشعب الفلسطيني، وأحدث عنده غيبوبةً في الوعي، وذلك عندما تتردى التصريحات لدى القادة، إلى مستوى هابط غريب على حسّ شعبنا، أو تتشنج المواقف من منطلق الحقد والكراهية، بدلاً من الحلول القائمة على المعادلات العلمية. وكل ذلك بفعل الممارسات الخاطئة، والتداعيات الفاسدة، التي خلفتها الأجهزة الأمنية، وما من رقيب عليها يلجم عدوانها. وأنا أتعجب من قيادة تدّعي حرصها على الشعب وتمثيله، ولا تشعر بحالة الاهتراء التي أتت على أعصابه، نتيجة الفلتان الأمني، الذي رقصت الأجهزة الأمنية على أنغامه.

إن دولة الاحتلال، وهي ترى في غزة خاصرةً لصيقة وموجعة، تريد لها أن تبقى مشغولة في صراعاتها الداخلية، وتحرص على إنكاء نار الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، لتبقى هي في منأى عن استحقاق الصراع، الذي تقوم به المقاومة، وتُعد له العدة، حتى تواجه هذا الاحتلال بحقها قبل قوتها، إنها تريد لهذه الساحة أن تعيش دوامة عنف لا ينتهي.

وإن ساحتنا منذ قرن من الزمان، وهي تعيش بأنفاسها زخم الثورات، لم يُعرف عنها أنها تردت إلى هذا المستوى من الاقتتال. وعلى الرغم من الاحتكاك الساخن بين الأجنحة العسكرية، فإنها حافظت على المزاج الوطني ألا يتلوث، لمصلحة الأعداء، وحافظت على المزاج عند شعبنا، ألا يقبل عريضة السلاح، ولا العيش على حساب الدماء.

لكن حضور الأجهزة الأمنية بقوة، بعد أو سلو، ومن أولوياتها بذل جهدها بما يرضي الاحتلال، وبناء قوتها وجبروتها على حساب هذا الشعب؛ كل هذا لا يُحتمل، ولا يصبر عليه أولو العزم من الذين تعبوا على مشروع المقاومة، ودفعوا الضريبة غالباً من أرواح المقاومين، والعلماء، والوجهاء، على يد فرق الموت التابعة للوقائي، بقيادة دحلان، والمخابرات العامة بقيادة الطيراوي، والتي تمردت على الحكومة المنتخبة شرعياً، وانتقلت ولايتها وصلاحياتها مباشرة، بعد نجاح قائمة التغيير والإصلاح في الانتخابات، من وزير الداخلية إلى الرئيس عباس، الذي جعل من رشيد أبي شبك، قيماً

على هذه الأجهزة، بجميع السلطات والصلاحيات، ووصياً على الداخلية ووزيرها. وما أبقى لوزير الداخلية من سلطان عليها، فوزارة الداخلية أصبحت مكتباً بلا صلاحيات، وعلى وزير الداخلية أن يستأذن رشيد أبا شبك في كل أمر، وأصبحت الحكومة عالة في أمنها على رشيد أبي شبك.

لقد بلغ الأمر في أدبيات هذه الأجهزة أن يأمر وزير الداخلية عنصراً من عناصر وزارته فلا يُطاع، وهذا نموذج صرّح به وزير الداخلية في الحكومة العاشرة الشهيد سعيد صيام، رحمه الله، قال: إنه طلب من المراسل في مكتبه كأساً من الشاي فكانت لا مبالاته هي الجواب. ودولة رئيس الوزراء تقف في وجهه المربعات الأمنية... ولا يسمح له بالمرور. فأين ظلّ الحكومة على شعبها؟ وأين سلطانها؟ كان الإمام مالك رحمته الله يقول للمسلمين: لا تذلولوا السلطان، فإنه من أذل السلطان لا توبة له. فأى شريعة وأي قانون يجيز هذه الحالة؟

الرئيس عباس جعل من هذه الأجهزة الأمنية وصية على الحكومة العاشرة. وكان الأجدر به أن ينأى بنفسه عن هذا التصرف، وألا يخترق القانون، أو يقوم بعملية التفاف على القانون، وألا يسمح لهذه الأجهزة، أن تخرج على الحكومة وعلى القانون؛ لأنه عانى من مثل هذه الحالة، وشرب من الكأس، يوم أن كان رئيساً للوزراء أيام الرئيس عرفات، فاستقال، وذهب مغاضباً، واعتزل بعيداً عن الساحة، إلى أن مات عرفات. فتولى كبر هذه الأمور في عهده، وبدلاً من أن يكون عوناً لوزير داخلته، ولحكومته، التي ما اجتمع بها بعد القسم، ولو لمرة واحدة... جعل من نفسه طرفاً، في كل ما جرى على الساحة الفلسطينية.

إن هذه السياسة أدت إلى الفوضى، وإلى خراب الذمم، وإلى عردة الأجهزة الأمنية، التي لا يستقيم حالها إلا بالامتثال لوزير الداخلية سعيد صيام، فكان لزاماً على وزير الداخلية أن يخرج من هذه الحالة. وقد رفع الأمر إلى عباس، وشكا له عردة الأجهزة الأمنية، ثم استأذنه في تشكيل القوة التنفيذية، كذراع شرطي للوزير. وصدر مرسوم رئاسي بذلك، ولكن الرئيس عباس لم يخرج به إلى النور، وتراجع عنه، وبقي رهن "الجوارير"؛ لأن وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس Condoleezza Rice تحفظت على تشكيل هذه القوة، وقالت لا. لأن الأميركيان لن يرضوا عن أي تشكيل،

خارج عن إطار سياستهم، ولن يرضوا عن صياغة أي تشكيل، أو جهاز أمن نظيف من الخيانة؛ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾²⁵.

ثم إن تشكيل القوة التنفيذية، ودخولها المباشر على حياة الناس وواقعهم، استفز الأجهزة الأمنية، ولم يعجبها هذا الحضور، فدخلت في احتكاك مباشر، وأخذت فرق الموت تعيث في الأرض فساداً. ودخل الجنرال كيث دايتون Keith Dayton على الخط الساخن، وجلس للتخطيط، وبدأت حرب التصفيات المنهجية. وعاشت الساحة حالة من الفلتان والرعب لا مثيل لها، واهترأت الأعصاب، وغاب الأمن عن الوطن والمواطن، حتى بلغ الأمر، أن أحد الإخوة من أساتذة الجامعة الإسلامية، بعث برسالة إلى دولة رئيس الوزراء إسماعيل هنية قال فيها: ”سألك بالله الذي أعز فتح بدحلان وأذل حماس بإسماعيل هنية... إلى متى هذه الحال“؟ نعم إلى هذا المستوى بلغت الأمور. ولا ينسى أحد منا، ما خرج به دحلان على الناس، بعد الفوز في الانتخابات، وهو يتوعد: ”راح أرقصهم خمسة بلدي“. وفي مهرجان لفتح في غزة، رفعوه على الأكتاف وهو يقول: ”خلي حماس تقتلني“. ولعل موقف التحدي هذا يعود إلى شعوره بالدعم الأمريكي له في الانقلاب على حماس، وهو ما ظهر لاحقاً في تصريح الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن عندما قال ”He’s our guy“ يقصد ”إنه رَجُلُنَا“²⁶.

ومن أجل أن ترضى أمريكا و”إسرائيل“، هل تقبلون يا كوادرات الأجهزة الأمنية، ويا أصحاب الأجنحة الخارجية، على أنفسكم هذا النزيف من الدماء، من خير أبناء شعبكم؟ فلماذا هذا السقوط؟ وإلى أين؟ ألا يكفيكم هذا السخاء من العطاء، الذي قدمه لكم الشعب من أمواله، تحت سطوة الإتاوات والخواوات؟ والعجب أن الوفود، في مكة وفي جوار الحرم، تعاهد الله على الصلح وحقن الدماء، وفرق الموت في غزة ترد على العهد بمزيد من سفك الدماء، ”قالوا للحرامي احلف، قال: أتى الفرج“.

لقد كان من شروط خارطة الطريق أن تقوم الأجهزة الأمنية على خدمة أمن العدو الصهيوني، ومعنى ذلك أن تُجهز على المقاومة، وأن تستبيح مشروعها، مقابل الاستحقاق المالي، الذي تجود به أمريكا والدول المانحة. ومن ثم القضاء على عمودها الفقري وهو حماس. ومن أجل تنفيذ المهمة وضمان نجاحها، تسلحت هذه الأجهزة

²⁵القرآن الكريم، سورة طه، آية 39.

²⁶Vanity Fair magazine, April 2008, <http://www.vanityfair.com/news/2008/04/gaza200804>

بلا حدود، حتى يطغى وجودها، وحتى تضرب ضربتها القاضية. فالاحتلال قدم لها كل التسهيلات لهذه المهمة، والنظام المصري السابق، غصّ الطرف عن التسليح والتهريب، والدعم اللوجستي... لأن الخطر الداهم والأول على "الأمن القومي المصري" هو حماس كما ادعى حسني مبارك وعمر سليمان. والرباعيتان العربية والدولية كذلك، ترى في حماس العدو الأول، أكثر من القاعدة؛ لأن معركة حماس مع الاحتلال، وما يقلق الاحتلال... يقلق الرباعيتين. وما أمر الكرفانات التي ضبطها سعيد صيام، وهي تهرب السلاح من مصر إلى غزة بإشراف دحلان، ولا الجنرال الأمريكي دايتون، الذي يتولى الشق الأمني من خريطة الطريق، والذي تولى كبر هذه الحرب، وخطط لها طويلاً عنا ببعيد؛ والذي صرّح من خلال محاضرة له، أنه لو تأخرت حماس ساعتين في أمر الحسم، "لكننا تغدينا بها قبل أن تتعشى علينا"، فالمخطط كان جاهزاً ينتظر ساعتين للتنفيذ.

إنني أتوجع لكل الأحداث التي عاشتها الساحة الفلسطينية، وأتوجع لكل الدماء التي سالت بغير وجه حق. وكان الأولى، أن تسيل في ساحات الجهاد ومراغمة الأعداء... وإنّ الساحة قد ظلمت، يوم أن اتهمت حماس بالانقلاب؛ لأنه من ينقلب على من؟ فالحكومة شرعية، والخارج عليها هو المنقلب على الشرعية، وهو الظلم والعدوان وهو التآمر. فماذا بقي أمام حماس؟ أن تستسلم للذبح، فذلك هو الخيل، وأن تستسلم لعردة الأجهزة الأمنية، فهذا هو العقم بعينه، وأن يُغيب الموت كل يوم أستاذاً في الجامعة، أو شيخاً قسامياً، أو إماماً في مسجد، أو وجيهاً يقوم على إصلاح ذات البين، فهذا ما أبقى في قوس الصبر من منزع، وهذا كله حصل قبل يوم الحسم.

إن الفساد الأخلاقي، الذي تباهى به شمعون بيريز، من على شواطئ غزة والشاليهات... هو صناعة عبثية، وماركة تجارية، خرجت من تحت عباءة الوقائي والمخابرات. وإن استباحة الأملاك العامة، وحتى الخاصة، والمعروفة عند الناس، و"الخواة" والإتاوات التي أصبحت بمنزلة مستحقات للأجهزة على التجار، بمندوبين على المعابر يتسلطون على كل وارد... على البترول والغاز ومواد البناء من إسمنت وحديد وحصمة، ومواد غذائية، واستيراد الطحين الفاسد، وزيت الزيتون من تركيا، ليضرب الزيت الوطني أيام وزارة أبي علي شاهين. كل ذلك قد انتهى إلى غير رجعة، بعدما كان مدعاةً لاستفزاز الناس.



لقد ابتداءً يوم الحسم، وقد سبق لأحد ضباط دحلان أن خرج على الإعلام ليقول عن حماس: هؤلاء لا يأخذون معي غلوة. وكان الحسم سريعاً، وحصل فيه تجاوزات، وهي مؤلمة، لكن النفوس من بعد هذا الظلم الطويل مشحونة، والحرب كما قال زهير بن أبي سلمة: وما الحرب ما علمتم وذقتم. وفي أقل من ثلاثة أيام انتهى الحسم، وسقطت المربعات الأمنية، والسرايا وتل الهوى، والسفينة. وقادة الأجهزة جميعاً في حيرة من أمرهم، وقد شُدِّهوا لهذا السقوط المريع للأجهزة المنتفخة. ولكن الساحة ارتاحت من هذا الكابوس، الذي طال ليله، وارتاحت الأعصاب، وارتاحت الساحة من المربعات الأمنية، وتكشفت المصائب، وزكمت الأنوف الفضائح. وإذا بها أجهزة أمنية في الظاهر، والباطن أن من ورائها مشروع مقاولات لأجهزة المخابرات العالمية. وبالرغم من هذا الفساد، وبالرغم من هذا الفلتان الذي استباح الدماء، وإذا باللوم كل اللوم على الحكومة الشرعية، وعلى حماس، والمطلوب منها أن تصبر على القضاء عليها. والمعروف أن أصحاب الحس الوطني والحرص القومي، يقفون إلى جانب الشرعية، ولا يأسفون على الأجهزة التي يقودها دايتون، والعجب من هذا الانفصام، فالأستاذ هيكل الذي أتبع حديثه يقول عن حماس: إنها أشرف ظاهرة في زمن رديء، ثم سمعته يلقي اللوم على حماس بعد الحسم، فلماذا؟ وقد أعذرت في كل شيء؟ وأخذت شرعيتها من صندوق الاقتراع؟ ولماذا يا أستاذ هيكل، وأنت من شخص المرض، وعريت الجنرال دايتون ومن معه؟ كم بقي من الوقت؟ ومن الرجال؟ وقد حصد الفلتان أكثر من 450 شخصية قيادية حماسوية، ولقد قالت العرب من قبل: "لولا وخز الإبرة... ما استقام الثوب".

ولما صح الرئيس أبو مازن من هول الصدمة، خرج على العالم بهجوم كاسح شنه على حماس، وأخرجها من الشعب الفلسطيني، وطاردها في الضفة الغربية شرّاً مطاردة، واتهمها بالانقلابية، والإمارة الظلامية. ونسي أبو مازن أن هذه الأجهزة المنفلتة انقلبت عليه يوماً، وحاولت أن تغتاله في خيمة العزاء، التي أقيمت للرئيس عرفات. ورقص أبو مازن على حبال الطائفية، وأثارها نكرة بين المسلم والمسيحي، وما علم أننا أقرب إلى المسيحي منه، وأن المسيحي أقرب إلينا منه... لأننا أبناء شعب واحد، وما اعتدينا على أعراضه وأمواله. ويا أبا مازن لي صديق مسيحي هو الأخ أوليغ من القدس، يقول لرجال الصحافة في بيتي، في رد له على مترجم فتحاوي يحرض علينا، يقول أوليغ إن الذي يساعد أمني وهي طاعنة في السن، ويحمل أغراضها من السوق إلى البيت، هو شاب مسلم من حماس. ويا أبا مازن إن أستاذنا المهندس حسن القيق، وهو

على فراش الموت، أوصى بإخواننا المسيحيين، وقال لولده زيد: قل للشيخ أبي طير، أن يستقبل إخواننا المسيحيين في حفل الفوز.

ويريد أبو مازن أن تتراجع حماس عن حسمها، وأن تعتذر، وماذا بعد؟ وكان الأولى بأبي مازن أن يعتذر هو عن خطيئة أوسلو. وألا يتباكى على الشرعية، التي ما حضرت يوماً في ظل منظمة التحرير الفلسطينية، والتي استأثر بها عرفات، وحجرها على نفسه دون سواه.

وأخيراً، مَنْ قتل أبا يوسف القوقا؟ وَمَنْ قتل الأستاذ أسعد الصفاوي؟ ومن قتل حاتم أبو شعبان؟ ومن قتل أيمن رزانية وعمار الأعرج، وهما صائمان في رمضان ينتظران أذان الإفطار؟ وَمَنْ قتل 17 من المصلين في مجزرة مسجد فلسطين؟ وَمَنْ قتل محمد رداد في جامعة النجاح؟ وهو يزود عن أعراض المسلمين؟

وأحتم أن غزة، في ظل هذه الأجهزة، كانت مرتعاً لتجارة المخدرات، وسوقاً رائجة لقادة الأجهزة الأمنية، ولقد أتموا القطاع بهذه البضاعة الفاسدة. واليوم غزة أنظف بقعة في العالم من المخدرات.

بعد هذا الحسم، بقيت الحكومة المقالة في غزة، تصرف شؤون القطاع، وطوقها الحصار من كل جانب، وانتظر الخصوم والأعداء سقوطها، وسبق أن حاولوا اغتيال دولة رئيس الوزراء... وقتل أحد حراسه، لتقوم الفوضى وتسقط الشرعية، ولكن الله موهن كيد الخائنين.

وفي الضفة الغربية، قامت حكومة تصريف أعمال، على رأسها سلام فياض، وهو يرأس ما يعرف بالتيار الثالث الذي فازت قائمته بمقعدين فقط في المجلس التشريعي، شغل فياض أحدهما، ولم تُعرض حكومته على التشريعي، وفتحت لها الدول المانحة بنوكها، والتزمت دولة الاحتلال بالإفراج عن مستحقات الضريبة. وجاءت هذه الحكومة على مقاس دايتون، فطاردت أجهزتها الأمنية كل من له علاقة بحماس، وكل مَنْ شارك في الانتخابات التشريعية، فاعتقلت، وعذبت، وقتلت رجالاً في التحقيق، وسامت أبناء حماس سوء العذاب، وتربصت بهم، ومن يخرج من سجون الاحتلال يعتقل فوراً عند أجهزة السلطة. وصادروا الأموال وأغلقوا الجمعيات وما يتبع لها. وفي وزارات هذه الحكومة أُجري مسح أمني بحق كل مَنْ ينتسب لحماس، وحتى بلغت الأمور عند وزير

الأسرى أشرف العجرمي، المجهول في الأوساط النضالية، أن يطلب من الاحتلال ألا يفرج عن نواب التغيير والإصلاح، حتى لا نُسقط حكومة هو فيها ورئيسها فياض.

يوم 2007/6/14، يوم انتصار للشرعية، التي أتت عن طريق صندوق الاقتراع، ويوم خلاص من فساد الأجهزة الأمنية، وهو وجه خير تمّ في حزيران/يونيو لأول مرة، وشفى الله به صدور قوم مؤمنين، ولأن الحروب والمصائب في العادة، تأتي في حزيران/يونيو كحرب 1967 وحرب 1982.

أما على صعيد السجون، فكان الأمر مقلقاً وموتراً للأعصاب، وحدث انقسام في سجون الجنوب، وهناك من الفصائل من تفهمت ظروف الحسم، وحتى من فتح نفسها، لكن ليست جميع النفوس على وتيرة واحدة، فأثر تنظيم فتح في سجون الجنوب، الانفصال عن حماس. أما سجون الشمال، فبقيت الحال على ما هي عليه. وقامت إدارة السجون بفصل أبناء تنظيم فتح في أقسام خاصة بهم، ومعهم فصائل المنظمة والجهاد الإسلامي، وبقي أبناء حماس في أقسام خاصة بهم، ومعهم كذلك فريق من الجهاد الإسلامي. وسجون الجنوب هي ”عسقلان“، و”بئر السبع“، و”نفحة“، و”ريمون“، و”النقب“، ومعها سجن ”عوفر“ القريب من بيتونيا.

يومها كنا في سجن الرملة، وحاولت إدارة السجن أن تفصل فتح عن حماس. قلنا لها: لا داعي لذلك فنحن إخوة نعيش معاً، ونتعهد ألا تكون بيننا مشكلات، وفعلاً عشنا أيامنا باحترام، ودون أي مشكلات.

قرار الحكم:

بعد ثلاث سنوات من المحاكم، وأكثر من 130 رحلة ”بوسطة“، بالحال التي تحدثت عنها من قبل، صدر قرار الحكم ضدي بـ 42 شهراً بالسجن الفعلي، ظلماً وعدواناً وعقاباً؛ لأن الشعب انتخبنا، وقد غيبيوا إرادته، وعذب وذاق الويل، كل مَنْ شارك في العملية الانتخابية فيما بعد، على أيدي أجهزة أمن دايتون، ولا يزالون يقبعون في السجون. كان ذلك بتاريخ 2008/11/24.

ثم إن النيابة لم يعجبها هذا الحكم، فاستأنفت ضدّ هذا القرار إلى محكمة ذات صلاحيات أوسع، وذلك بتاريخ 2009/4/6، وفي مرافعة منها أنني أشكل خطراً على أمن هذه الدولة، وقد أتوا على الماضي فعرضوه على المحكمة، وكأني أقود جيشاً جراراً

لتحرير فلسطين. فخرج قرار المحكمة بزيادة الحكم ستة أشهر أخرى، ليصبح 48 شهراً، وشهراً آخر؛ لأنني رفضت الوقوف لـ "حضرة القاضي". كان ذلك بتاريخ 2009/4/30.

رجعت إلى سجن الرملة بعد الحكم، وفي اليوم الثاني تمّ الرحيل إلى سجن عسقلان، الذي مكثت فيه عشرة أيام، ونزلت على غرفة فيها الأحباب، وهم الدكتور النائب محمود الرمحي، وأمير القوم المجاهد عبد الحكيم حنيني، والإخوة خالد مرداوي ممثل حماس في السجن، ومحمد بشارات²⁷، ومحمود مرداوي، وعصام قضماني، وشادي غنمة. والتقيت إخوة آخرين من الذين مضى على اعتقالهم أكثر من 25 سنة، منهم المناضل فخري البرغوثي، الذي مضى على اعتقاله 33 سنة، والمناضل توفيق العبد الله، وعثمان مصلح، وناصر أبو حميد، شقيق المجاهد الشهيد عبد المنعم أبو حميد. التقيت هؤلاء الكرام وتفاعلت معهم في حديث عن الأيام الخوالي، والشوق لا يحتاج إلى مقدمات، إنما هي العاطفة الصادقة، وأخوة القيد والمعاناة.

وفي سجن عسقلان تبدلت الأحوال عن ماضيها، وضاق الخناق كثيراً على الأسرى، وساحة عسقلان المشهورة أصبحت ممسوخة، بعدما قسموها إلى "بئرين". وإدارة السجن جعلت من حالة الضعف والاهتراء، التي رضي بها فريق من الأسرى، رهينة مقابل مصالح ذاتية على حساب قوة السجن.

وخطبت الجمعة في ساحة، كأنها لا تساعد عاطفة الخطيب في أن يصل ويجول، كما كانت أيام زمان، يوم أن كانت الساحة... ساحة! والأسرى وقتئذ كأن على رؤوسهم الطير. وشتان، شتان ما بين المرحتين.

وفي يوم الأحد (بعد خطبة الجمعة) جاء قرار نقلي إلى سجن نفحة، وحاول الإخوة أن يبطلوه، فرفضت ذلك، وقلت لهم: الخيرة فيما اختاره الله، والحمد لله.

سارت بي "البوسطة" إلى سجن نفحة الصحراوي، مروراً ببئر السبع، وحطت بي الرحال هناك، وعادت بنا الذكريات واللقاءات مع إخواني. فكان من المستقبلين شقيق روجي نائل البرغوثي، عميد الأسرى في سجون الاحتلال، وقد مضى على

²⁷ محمد عارف بشارات (1975-): ولد في قرية طمون قضاء نابلس. طورد للاحتلال سنة 1990 بعد تنفيذه لعملية طعن ضدّ مستوطنين صهاينة. في 1992/9/22 حاول تنفيذ هجوم مسلح يستهدف الموقف الرئيسي للجيش الصهيوني بالتلة الفرنسية في مدينة القدس. اعتقل بعد قتله لجندي صهيوني اشتبه في أمره. حكم بالسجن المؤبد، وخرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

اعتقاله 33 سنة، والحمد لله أن فرج كربه في صفقة وفاء الأحرار. ونزلت على غرفة 81 قسم (13)، وقد سكنتها من قبل، وكان فيها المجاهد بلال البرغوثي²⁸، والمجاهد عماد صقر²⁹ من غزة، والمجاهد عماد الشريف وغيرهم. لكن هذه الأسماء لها حضورها في نفسي، فالأخ بلال والمجاهد عبد الله البرغوثي، الذي يعيش حياة العزل منذ اعتقاله، هما ممن دوخوا الاحتلال، وأوجعوه بعملياتهم البطولية، وعماد صقر المتفاني في خدمة إخوانه، ولا أستغني عن ذكره من خلال هذه التجربة؛ لأنه وجميع إخوانه أحاطوني بالعناية والاحترام أكثر من أهل بيتي. وعماد الشريف الأديب الحيي، وابن مجموعة صالح التلاحمة (أبو مصعب) الجندي المجهول الذي لا يعرفه كثير من الناس، ويكفي أن الله يعرفه. ووالله لقد أوجع قلبي لحيائه وعظيم أدبه، ودخل سجون الاحتلال، وقد التقيته في سجن الخليل، ثم سجون السلطة في رام الله وأريحا، ومنذ أن كان طالباً في جامعة بيرزيت في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، وإلى أن استشهد والعطاء ديدنه، وكان يُقتر على نفسه من أجل دعوته. هذا أبو مصعب صالح، وهذا حسنين رمانة، وسيد الشيخ قاسم³⁰، رحمهم الله، وهنئاً لهم الشهادة، استشهدوا في رام الله في انتفاضة الأقصى.

منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر:

أما وقد وانتني الفرصة للحديث عن هذه الصفوة، فالمقام يتسع للحديث عن بعض الشهداء من أبناء هذه الدعوة. فالشهيد محمد عزيز قائد جبل الخليل، استشهد واستشهدت بندقيته معه بعد أن غطى انسحاب إخوانه. وعماد عقل الذي احتضنته

²⁸ بلال يعقوب البرغوثي (1976-): ولد في الكويت لعائلة تعود أصولها لقرية بيت ريماء قضاء رام الله. عاد للوطن والتحق في جامعة بيرزيت. أحد نشطاء الكتلة الإسلامية في الجامعة. مع اندلاع انتفاضة الأقصى انضم لصفوف كتائب القسام على يد الشهيد أيمن حلاوة، وجند القسامي عبد الله البرغوثي. أسهم في الإعداد والتجهيز لعدد من العمليات، واعتقل لدى أجهزة السلطة الفلسطينية الأمنية، وفي 2002/4/2 حاصرت قوات الاحتلال الصهيوني مقر الأمن الوقائي الفلسطيني في بيتونيا ليسلم بلال وإخوانه الأسرى لقوات الاحتلال. حكم عليه بالسجن المؤبد 15 مرة و35 عاماً.

²⁹ عماد الدين محمد صقر (1983-): ولد في خانونس لعائلة هجرت من بلدة حمامة سنة 1948، والتحق لاستكمال تعليمه في جامعة الأقصى. اعتقل من على حاجز أبو هولي في 2004/6/1، وحكم بالسجن 16 عاماً بعد اتهامه بالعضوية في كتائب القسام والمشاركة في عملياتها.

³⁰ سيد الشيخ قاسم (1974-2003): ولد في البيرة واعتقل مرتين في سجون الاحتلال. اعتقل سنة 1998 في سجون السلطة الفلسطينية لنشاطه في كتائب القسام وعضويته في المجموعات التي قادها الشهيد عادل عوض الله، وخرج من سجون السلطة بعد انطلاق انتفاضة الأقصى. أسهم في إعادة تأسيس كتائب القسام في منطقة رام الله وصار أبرز قادتها، وكان المسؤول المباشر عن الأسير عبد الله البرغوثي بعد اعتقال الأسير بلال البرغوثي. استشهد وأخوه صالح التلاحمة في اشتباك مسلح على أرض رام الله فجر 2003/12/1.

جبال الخليل، وبيت لحم ورام الله ونابلس، والذي أوجع قوات الاحتلال في غزة، حتى عرض راين على والده أن يُبعده سالمًا. وعندما كنت في التحقيق سنة 1998، قال لي ضابط تحقيق: الرجل عماد عقل لا غير. فهذا عدوك يشهد لرجولة هذا القائد. وعاصم عسيده³¹ من قرية تِل (نابلس)، يغطي انسحاب أخيه الشهيد سامي زيدان³² ابن بلدته. وبعد استشهاد عاصم وقد لفحه حرُّ الهجير، وأظمأه عطش الملاحقة والمطاردة، عثرت قدمه بزجاجة باردٌ ماؤها... والسؤال من أين أنته؟ الله أعلم، لكنه بعد عشرة أيام من استشهاد، يصل إليه أحد المزارعين من قرية عوريف، ويجد غزالةً تحرسه ولا تفارقه، طوال أيام استشهاد العشرة، وجسده كما هو، ورائحة دمه الزكي تضيع المكان بشذاه. وعلي الحضيرى³³ يغطي انسحاب مهند الطاهر³⁴ وعلي علان. ومع علي الحضيرى كريم مفارحة، الذي استشهد مع الشيخ الرائد يوسف السركجي؛ علي يغطي الانسحاب، ويقتل ضابط الوحدة، ويجرح اثنين من جنود العدو. وببركة صنعته هذا، نفذ الشهيد عاصم عسيده عملية الجريئة بالعبوة، التي صنعها الأخوان علي علان وكريم مفارحة، وقتلت عشرة من المستوطنين الصهاينة، في عملية

³¹ عاصم سميح عسيده (...-2002): ولد في بلدة تِل جنوب غرب مدينة نابلس، والتحق في كتائب القسام سنة 1999. طورد للاحتلال سنة 2002. شارك في عملية "عمانويل الثانية" والتي أدت إلى مقتل وجرح العشرات من الصهاينة يوم 2002/7/16. وفي اليوم التالي للعملية كمن لمجموعة من الجنود الصهاينة التي حاولت اللحاق بالمنفذين فاشتبك معهم تغطية لانسحاب أخيه سامي زيدان إلى أن استشهد يوم 2002/7/17.

³² سامي محمد زيدان (1980-2003): ولد في بلدة تِل جنوب غرب مدينة نابلس، التحق في انتفاضة الأقصى بكتائب القسام ضمن المجموعات التي قادها الشهيد نصر عسيده. اعتقلته السلطة الفلسطينية في سجونها وبقي إلى أن اجتاحت قوات الاحتلال الصهيوني نابلس. شارك في الدفاع عن نابلس، وشارك في عملية "عمانويل الثانية" والتي أدت إلى مقتل وجرح العشرات من الصهاينة يوم 2002/7/16، وغطى انسحابه الشهيد عاصم عسيده الذي استشهد يوم 2002/7/17. استشهد في 2003/1/1 بعد تنفيذ عملية في وادي قانا دمر فيها دورية صهيونية واشتبك مع قوات الدعم الصهيونية حتى استشهد.

³³ علي منصور الحضيرى (1977-2002): ولد في مدينة طولكرم لعائلة هجرت من مدينة يافا سنة 2002. اعتقل في سجون الاحتلال الصهيوني، والتحق في كلية الهندسة بجامعة النجاح بعد خروجه من السجن. انتظم في صفوف كتائب القسام إثر اندلاع انتفاضة الأقصى. استشهد شقيقه عامر بعملية اغتيال يوم 2001/8/5 لنشاطه القيادي في كتائب القسام. استشهد بعد معركة مع جنود صهاينة حاصروا منزل تواجد فيه والشهيد مهند الطاهر وعلي علان، اللذين انسحبا بعد أن وفر لهم علي التغطية، وكان ذلك في مدينة نابلس يوم 2002/5/3.

³⁴ مهند حافظ الطاهر ([1974]-2002): ولد في مدينة نابلس والتحق في كلية الشريعة بجامعة النجاح. اعتقل في سجون السلطة الفلسطينية سنة 1998 لعضويته في خلية شهداء من أجل الأسرى. مع اندلاع انتفاضة الأقصى، خرج من السجن ليواصل مقاومته للاحتلال فأسهم في إعادة تأسيس كتائب القسام تحت قيادة الشهيد جمال منصور، وخطط وجهز عدداً من العمليات الاستشهادية. استشهد إثر اشتباك مسلح بعد محاصرته والشهيد عماد دروزة في مدينة نابلس يوم 2002/6/30.

عمانوثيل الثانية. وعاصم ربحان الشهيد، وشقيق الشهيد محمد ربحان، الذي تخلّق بأخلاق نبيه محمد ﷺ، عاصم يسيطر على الحافلة بركابها، ويقوم على إخلائها من الأطفال، ويقتل مَنْ في الحافلة من المستوطنين. الله أكبر، مَنْ مثل هؤلاء الرجال؟ وعبد الرحمن حماد، وكنا نلقبه بـ”الكرز“، وأشهد أنه كان صواماً قواماً، وفي النهار تعجب من ”فِعْطته، وهيزعته“، وتقول: هذا عبد الرحمن!! الصوام القوام!!

فيا لرجالنا وهم يقتحمون الأهوال، ويتفننون في إيلام عدوهم، وفي صناعة الأحداث، واسمعوا إلى الشهيد محمد هزاع³⁵، وهو يُلقي كلمة الخريجين: ”نحن لا نردد أغنية الموت، وإنما نتلو أناشيد الحياة“، وبعدها يلحق بالركب ويستشهد. ومجموعة القائد جاسر البرغوثي³⁶، هشام حجاز، وأحمد النجار، ومراد البرغوثي... ومعدرة للذين لم أذكر أسماءهم، وهم أحق أن يذكروا. هذه المجموعة نصبت كميناً لدورية من جنود الاحتلال، وقتلت خمسةً منهم في عملية عين يبرود، وكان من جرأتهم أنهم نزلوا إلى موقع العملية، وأجهزوا على الجنود، وغنموا أسلحتهم. وقلت حينها لإخواني في سجن نفحة: إنَّ هذا العمل من صنيع رجالنا؛ لأنه لا يجرؤ على مثل هذا إلا هم وأمثالهم، وتبنت العملية كتائب شهداء الأقصى، وذهب رجالنا إلى وليد العمري مراسل الجزيرة، وسلموه بياناً عن العملية، فرفض أن يعلنه من على قناة الجزيرة، ولولا التهديد وصور البنادق التي غنموها من جنود العدو، ما قبل إذاعة البيان.

ومكثت في نفحة لأكثر من سنة ونصف، وكان الناطق باسم القسم، الأخ المجاهد سليم الجعبة، وقد حالفه التوفيق في قيادة القسم. والتقيت إخواني وأحبائي ممثل المعتقل عن حماس فهد الزقزوق، هذا الفتى الذي قام على خدمة إخوانه، في مرافق العمل، وعلى الخصوص مطبخ السجن، الذي كان قيماً عليه... ثم عمل في مجلس شورى الحركة،

³⁵ محمد هزاع الغول (1978-2002): ولد في مخيم الفارعة. حاصل على بكالوريوس الشريعة من جامعة النجاح، وكان طالب دراسات عليا فيها، وناشط في الكتلة الإسلامية في الجامعة. يوم 2002/6/18 فجر نفسه في الحافلة رقم 34 في القدس ليقتل العشرات من الصهاينة المحتلين، وأشرف على العملية الشهيد مهند الطاهر.

³⁶ جاسر إسماعيل البرغوثي (1973-): من مواليد قرية كوبر قضاء رام الله، متزوج وله ولدان. اعتقل لنشاطه في فعاليات الانتفاضة الأولى مطلع التسعينيات. أسهم في إعادة تأسيس العمل العسكري لحركة حماس في الانتفاضة الثانية، وقاد وشارك في عدد من العمليات التي استهدفت الجنود الصهاينة المنتشرين على الحواجز العسكرية في منطقة رام الله، وأبرزها عملية عين يبرود التي قتل فيها ستة جنود صهاينة. اعتقل في 2003/12/20، وحكم عليه بالسجن تسعة مؤبدات. خرج في صفقة فداء الأحرار يوم 2011/10/18، وأبعد إلى قطاع غزة.

وعضواً لمكتبها الإداري، وله من الذوق والأدب الكثير. والتقيت المجاهد والحبیب أبا نضال حسان، وأبا عمران الغول³⁷، وولده محموداً، وهو والد الشهيد عمران، وشقيق القائد الشهيد عدنان الغول. والتقيت حبیب قلبی هارون ناصر الدين، وعصاماً ومنصوراً وأيمن أبو خليل أبو حمزة أسد الله، كما يحب أن ينادى عليه، وهو شاب ذكي قد حصّل الليسانس والماجستير، من خلال السجن، وهو يعد للدكتوراه. والتقيت الشيخ صالح العاروري من خلال ”البوسطات“، وجميع إخواني في المجلس التشريعي، وعلى رأسهم الدكتور عزيز الدويك، والنائب الوزير عمر عبد الرازق³⁸، والمهندس عبد الرحمن زيدان، وبارك الله في الجميع.

الرد من القدس:

لما نجح الحسم، وانتهى الفلتان الأمني، بعدما انضغط الناس كثيراً وعاشوا على أعصابهم، حتى إن إخواناً لنا من أسرى غزة قالوا: إلى متى هذه الحال؟ نُدبِح في كل يوم، وتسيل منا الدماء، فأين القوة؟ وأين الرد؟ وأين الإعداد عند إخواننا؟ شباننا يتعرضون للتصفية، والأجهزة الأمنية تعيث في الأرض فساداً، ولا ترى في هؤلاء الشبان إلا مَنْ يقف حائراً ينظر إلى أخيه، وهو يعلم أنه لا جواب... ونعوذ بالله من العجز.

لقد تزعزعت ثقة إخواننا، وعلى الخصوص أسرى غزة، في قدرة إخواننا على تحجيم هذه الظاهرة، أو القضاء عليها، وتساءلوا: أين القسام مما يجري؟ وإلى متى دمنا يُستباح؟ وبلغ الأمر بأفراد أنهم كادوا يقنطون من قدرة حماس، لما وصلوا إليه من تعبٍ في أعصابهم، وما هدأت خواطرم ولا اطمأنت نفوسهم إلا بعد الحسم العسكري.

³⁷ عمر محمود الغول (1962-): ولد في رفح لعائلة هجرت من قرية هربيا سنة 1948، متزوج وله ستة من الأبناء. بدأ عمله الجهادي ضد الاحتلال مع شقيقه الشهيد عدنان الغول. اعتقل سنة 1987 وحكم بالسجن المؤبد. استشهد ولده عمران في حزيران/يونيو 2003، واستشهد أخوه القائد الكبير في كتائب القسام المهندس عدنان الغول في تشرين الأول/أكتوبر 2004. خرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

³⁸ عمر مطر عبد الرازق (1958-): ولد في سلفيت حاصل على الدكتوراه من جامعة أيوا بالولايات المتحدة في الاقتصاد الرياضي، وحاصل على عدد من الجوائز العلمية. أستاذ في قسم الاقتصاد في جامعة النجاح الوطنية. اعتقل عدة مرات في سجون الاحتلال الصهيوني. انتخب على قائمة التغيير والإصلاح في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني سنة 2006. اختير وزيراً للمالية في الحكومة الفلسطينية العاشرة التي شكلتها حركة حماس، واعتقل لذلك في سجون الاحتلال.

بعد هذه المرحلة، وقد مضى على الحسم ثمانية أشهر، قامت قوات الاحتلال بعملية اجتياح لبلدتي بيت حانون وجباليا، شمال قطاع غزة. وحاولت هذه القوات، الوصول إلى شارع صلاح الدين، الذي يصل شمال القطاع بجنوبه، لكن المقاومة الباسلة، تصدت لقوات الاحتلال، وأوقفت زحفها، وأوقعت فيها خسائر على صعيد الآليات والأفراد. وحوصر المقاتلون في مسجد بيت حانون، وخرجت النساء لحماية أبنائهن من المجاهدين، خرجن زرافات، وواصلن الطريق إلى المسجد، وكتب الله لهن أجر النصر والجهاد، ونجح المقاتلون في الخروج من الطوق. وتقدمت الحاجة فاطمة النجار، بنفسها في عملية استشهادية، واقتحمت مجموعة من قوات الاحتلال، وفجرت نفسها بينهم، وأوقعت فيهم قتلى، فتميز العدو غيظاً، واستشرى في حربه بما لديه من دبابات ومدافع، وبلغ القصف أشده، والعدو مُمعن في حربه. وما توقف إلا بعد عملية المجاهد القسامي علاء أبو ادهيم ابن القدس، وابن جبلها الذي كبر من على تلاله، الفاروق عمر بن الخطاب لما رأى القدس.

ففي تاريخ 2008/3/6 نفذ المجاهد علاء عمليته العسكرية، في مدرسة تقوم على تخريج العقائديين من المستوطنين، كمقدمة للإعداد العسكري، وهي من أهم روافد الاستيطان... فقتل عدداً من المنتسبين إليها وجرح آخرين، وانتهت العملية باستشهاده. إن هذه العملية أسهمت في إيقاف الحرب، ولولاها ما انتهت سريعاً؛ لأن نذر الانتفاضة الثالثة بدأت تلوح في الأفق؛ لأن الوضع في الضفة الغربية — بالرغم من الأداء المخجل — للأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية، والتي لاحقت المجاهدين ومنعت التظاهرات بالقوة، حتى لا تنتصر لغزة، والعالم من حولنا، بينما انتصرت الشعوب كلها لغزة، إلا الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية الذي حرّمته السلطة من ذلك. هذا الوضع كاد ينفجر، وأن يأتي الطوفان بانتفاضة ثالثة. وأن يخرج الوضع عن السيطرة، وهذا ما قدرته الأجهزة الأمنية للاحتلال.

أما الشهيد علاء، فهو من عائلة متدينة وملتزمة، ووالده مهندس معماري وقريب، وقد عرفته منذ سنة 1985، يوم أن تحررنا من السجون في عملية التبادل، وتوطدت العلاقات بيننا، وتبرع مشكوراً في تخطيط بيت لي، جزاه الله خيراً.

وهذه أبيات من الشعر، نظمتها تحت عنوان سِراة الحمى، كان للشهيد علاء حظٌ فيها:

هنا القدس أجنادها للتحدي
 فيا موقد الجمر أيقظ... لهيباً
 علاء... علا بالشهادة... درباً
 أتى بالذي هزّ ركن... العدا
 أتى بالذي زلزل الأمن... قسراً
 أتاهم من الغيب من حيث نادى
 من القدس حيث الإباء... تباهى
 وأسمع من في الورى... حسرتاه
 هنا القدس أنشودة للحمى
 هنا الحمس جاءت على قدر
 هنا الشرق كالنخل لا ينثني
 هنا الدفء كالشمس في بعثها

ولحن الفدا أصله من... رباها
 من الثأر حتى يطيب... هواها
 فيا جنة الخلد حيي... فتاها
 وشفى صدوراً وروى... ظماها
 وشلّ من زحوف الطغاة... قواها
 بلال ليوم الفتوح... نداها
 أتاهم وخابت يهود... مناها
 فوا نشوة الضارعين... دعاها
 دماء الحماس... نجيع... فداها
 وحمس العراق رديف... قضاها
 ومن حلفه الغرب خاب... رجاها
 وليس الغروب يداني... علاها

وفاة الوالدة:

ومع المساء من يوم السبت 2009/1/25، وعن طريق الهاتف المحمول، وهو سبب معظم مشكلات السجن، وإذا بالأخ سليم الجعبة يبلغني بوفاة الوالدة رحمها الله، فحمدت الله واسترجعت، وفاضت عيناى عليها بالدموع. وحتى هذه اللحظة، إن كانت لي عجلة في فراق هذه الدنيا، فالله أولاً، والرسول ﷺ ثانياً، ثم أمي، فوالله إنى أحب أن ألحق بها لأمتع عيني برويتها، لأحضرها وأجلس بين يديها.

وأتوني الهاتف المحمول، وتحدثت إلى إخواني وأخواتي، وتبادلنا البكاء من خلال الهاتف المحمول. والحمد لله ماتت وهي تقول: "اللهم لا تحوجني لأحد سواك". شعرت، رحمها الله، بالألم، فذهب بها إخواني وأختي وزوجتي إلى المستشفى، وأجريت لها فحوصات أولية، فاضجعت يمينا على سريرها، وقالت لي أختي: كان من الصعب أن تضطجع يمينا لسمنتها. لكن الأمر هذه المرة تم بسهولة، وتوسدت يدها اليمنى، وبلا ضجيج، ودون أن يشعر أحد نطقت بالشهادتين، كأن شيئاً لم يكن. رحمها الله، وأسكنها فسيح جناته، اللهم أسكنها الفردوس الأعلى من الجنة. اللهم أمين. وحدثوني

عن جنازتها فقالوا: ما رأينا أسرع منها إلى مئواها الأخير، وما شعرنا بثقل تابوتها، وسمعت من الناس أنه لم تحظ جنازة من قبل، بالحضور في قرينتنا كما حظيت جنازتها، رحمها الله.

ومن أقوالها: مشيت دروبي وأهلي ما دروا بيًا... مشيت دروبي وما دروا بغير عجاج الدرب على رجليًا.

وكانت تدعو الله: "اللهم لا تمتني إلا وعجاج الطريق على رجلي"؛ وكان لها ذلك.

وكانت تقول:

لا تعيرني يا بنات عمي كَتَبَةٌ عَلِيٌّ وَأَنَا فِي بَطِينِ أُمِّي

لا تعيرني يا بنات الناس كَتَبَةٌ عَلِيٌّ مِنْ الْقَدَمِ لِلرَّاسِ

وكانت تقول:

البنات التي ما هي مجللة بجلالها اللعنة على أبوها وعلى أبو خيالها

وكان من دعائها لي: "روح يا محمد هيجر، الله يعليّ درجاتك".

اختطاف شاليط والحرب على غزة:

مضت الأيام ثقيلةً على الأسرى، وقد اجتمعت عليهم هموم الحرب على غزة، وهموم صفقة التبادل، لكن الحرب أخذت حقّ الأولوية، وسنخرج عليها، بعد هذه اللفتة عن اختطاف شاليط، وعن تداعيات هذا الاختطاف.

مضت الأيام ثقيلة علينا، وعلى شعبنا، يومٌ يتلوه يوم والأمل يتجدد، والانتظار صعب، وَعَصِيٌّ على الانكسار. وصارت الأيام شهوراً، والشهور أعواماً، والجندي المختطف من أرض المعركة، ينتظر العودة إلى بيته، كما ينتظر أحد عشر ألفاً من الأسرى الفلسطينيين عودتهم التي طال أمدها.

خمسة أعوام، والأعصاب مشدودة، بعد اختطاف الجندي شاليط، الذي تعاطف معه العالم وانشغل بأمره، ويريد له عودة سالمة بلا ثمن. فالكل ينتظر لحظة الفكك، ودولة الاحتلال في غير واردها... وعزيزٌ عليها أن تدفع الثمن... وتبكي أسيرها الغالي عليها في ظاهر الأمر، وتتمنى غياب كحال رون أراد Ron Arad حتى لا تدفع الثمن.

وقد استنفدت كل السبل من أجل الوصول إليه، وفتحت قنوات مع الجن، وتبرع لها دحلان، والنظام المصري لعلهم يصلون إليه، ولكن نسأل الله أن يردهم خائبين. ودولة الاحتلال مستعدة لأن تضحي به، لو علمت مكانه، كما ضحت بجنديها الأسير، في الحرب على غزة بالقتل لا بالأسر. كل ذلك حتى لا تُجبر على تحرير الأسرى من سجونها.

جندياً له شأن، أما آلاف الأسرى الذين طال غيابهم، ويقبعون في سجون الاحتلال، فلا شأن لهم عند الظلمة، بل هم من شجرة مقطوعة عند الاحتلال، وعند العالم الظالم. وخبر عن الصفقة، يرفع من معنويات الأسرى إلى عنان السماء، وآخر يعود بعقارب المعنويات إلى الوراء 180 درجة. وما بين حين وحين يتجدد الأمل، وفجأة يتبدد... فإذا هو بعيد، وإذا بالأحلام تنهوى والآمال تتراجع متقهقرة، والحرمان تتفاقم همومه وتتنادى أوجاعه. والحرية قريبة... قريبة... وبعيدة... وبعيدة. ومن الأسرى من فقد الأمل؛ لأن معايير الإفراج، حسب الإخراج الصهيوني لا تنطبق عليه، لموقف عزة في التحقيق، كالمجاهد تيسير سليمان حمدان، كما قال لي ضابط التحقيق في المسكوبية: تيسير لن يخرج من السجن، ولا حتى في صفقة تبادل. ولماذا؟ قال: تيسير وهو يدي بإفادته، وأنا أكتب ما يقول، قال: ثم قمنا بقتل الكلب. فيقول له المحقق: يا تيسير، قل: قمنا بقتل الجندي، ولكنه يصر على أنه قتل كلباً. فقال لي المحقق: نتيجة لهذا، أوصت لجنة من الشبابك، بعدم الإفراج عنه ضمن كل الظروف.

وكذلك للأسباب التي ذكرت، بأن أيدي بعض الأسرى "ملطخة" بدماء الصهاينة. والسبيل الوحيدة للخلاص من هذه الحالة هي الصبر على تبادل الأسرى حتى يذعن العدو. ولا مجال في هذا الملف لحسن النوايا عن طريق المفاوضات. فالتجربة علمتنا أن دولة الاحتلال لا تستجيب إلا بليّ ذراعها وكسر عظمها.

وتحت مصطلح المعايير الظالمة، فلا بأس أن تقتل منا دولة الاحتلال، فهذا دفاع عن النفس، ودمنا مستباح. والعالم الظالم جاهز أن يسوّغ لها عدوانها، أما الثأر والانتقام لشهدائنا... فوصمة "الإرهاب" جاهزة. وأسر جندي يحتل أرضنا جريمة، وتقوم الدنيا ولا تقعد!! والعالم كل العالم، وحتى المنافقون من الأعراب، تبنوا هذا الجندي، وكثر آباؤه. وتبرعت مخابرات النظام المصري، للتحقيق مع المجاهدين من غزة، للوصول إلى هذا الجندي. والمطلوب من التنظيمات أن تطلق سراحه فوراً وبلا ثمن. واهتمامات

العالم، وزيارات الوفود من زعاماته لأسرة شاليط، يجدون في ذلك سلوى التضامن، ويتشفون بذلك — قاتلهم الله — ويزيد ذلك في عريضة الاحتلال. أما آلاف الأسرى من الفلسطينيين فلا بواقي لهم، ولا يوجد مَنْ يتبناهم. ومن أجل هذا الجندي شنت دولة الاحتلال حرباً ضروساً على غزة... انتقاماً له، كما حصل في الجنوب اللبناني، بعد عملية أسر جنديين من جيشها، على يد حزب الله. فقتلت ودمرت وأزهقت أرواحاً، وهددت بالمزيد إن لم يطلق سراح الجندي... فالحرب... ثم الحرب. ومزيداً من الضغوط، كتجربة سابقة لمنظمة التحرير في الاجتياح سنة 1982، أعادت طياراً إسرائيلياً وقع في أسرها، تحت ضغط الحرب إلى دولة الاحتلال.

ومع هذا العدوان، يخرج علينا من أبناء جلدتنا ووطننا، من يسوِّغ للاحتلال عدوانه فيقول: دفعنا آلاف القتلى من تحت رأس شاليط، ونحن نقول: يا هذا، لو كان أبوك في السجن، أو أخوك أو ولدك أو ابنتك... ما خرجت علينا بصوت عالٍ. وتتوجه إليك بالسؤال: مَنْ لهؤلاء الأسرى، وقد عجزت المفاوضات وحسن النوايا عن أن تخرجهم من قبورهم؟ أم أن قضية الأسرى خاضعة لسوق المزايدات؟ ومن ورائها تجارة رابحة؟ فأوسلو، وكل من شارك فيه واحتضنه، لم يحرروا أسيراً مضى على اعتقاله 34 سنة حتى الآن. والأخ أحمد أبو السكر، لولا أن السلطة قايضته بالجاسوس عدنان ياسين، ما خرج من السجن، فكيف السبيل لتحرير أسرى الحرية؟! أسرى القضية والشعب الفلسطيني؟ ولولاهم ما تبوأتم مواقعكم في السلطة؟ أو ربما تريدونهم أن يخرجوا بالأكفان السوداء، كما خرج الشهداء الحاج محمد حسن أبو هدوان، وجمعة إسماعيل موسى، ويوسف العرعير، فهذه هي المعضلة. ويا حبذا لو تساعدونا في حلها. والسؤال منذ قيام دولة الاحتلال، هل توقف عدوانها؟ وكم قتلوا من أطفال هذا الشعب؟ ومن نسائه ومن شيوخه؟ وكم هدموا من القرى والبيوت؟ أتظنون أن إجرامهم يحتاج إلى مسوغات؟ أم أنهم أكبر من اتفاقيات جنيف Geneva Conventions، وهذه الاتفاقيات لا تخضع لإرهاب دولتهم؟ ولا يخرجون عليك إلا بوقاحة، وإذا ما نزلت بهم نازلة من نوازل المقاومة، فلا ترى على نواصيهم إلا الذلة، وتراهم يستعطفون الرأي العام العالمي لنصرتهم، والوقوف في وجه حماس. ودوماً يتباكون افتراءً على الله، وعنوانهم في البكاء اسمٌ لكتاب قرأته: ”دموعٌ في عيون وقحة“.

بعد هزيمة الاحتلال في الجنوب اللبناني سنة 2006 على يد حزب الله والمقاومة، تعرى جيشه في الحرب، التي أرادتها أمريكا مشروعاً جديداً لشرق أوسط جديد. لو قدر لهم كسب الحرب وإبادة حزب الله، فمشروع الشرق الأوسط الجديد، عملت عليه راييس، وخطت له أمريكا و"إسرائيل" وعربت له وزيرة الخارجية الأمريكية راييس، لكن باؤوا جميعاً بالفشل، أمريكا والاحتلال وعرب التسوية السلمية. فقد انتصر حزب الله في هذه الحرب، وعاد جيش الاحتلال مهزوماً مدحوراً، كسيراً يجرّ من وراءه ذيول الخيبة. وعلى هذا، فلا بدّ من ردّ الاعتبار لهذا الجيش الخائب، في منطقة أخرى، وتبدو أنها لقمة سائغة في الجنوب... لكن ليس الجنوب اللبناني، إنما الحرب القادمة على الخاصرة للصيقة، والتي تبدو ضعيفة، مع ما يملك حزب الله من عتاد. الحرب على غزة... بعد أن قامت المؤسسة العسكرية، على إعادة تأهيل جيشها المهزوم من جديد. وساحة عمليات بتدريبات متواصلة، لاجتياح القطاع بكامله، حتى تقضي على المقاومة بشكل عام، وحماس بشكل خاص. ثمّ هي فرصة للجيش المهزوم أن يردّ اعتباره، ويعيد هيئته التي تمرغت في التراب، على يد حزب الله في الجنوب اللبناني.

بعد هذه الهزيمة، بأقل من سنة كان الحسم، وكانت دولة الاحتلال مشغولة في علاج آثار الهزيمة، ولو كانت بعافيتها، ما صبرت على هذا الحسم، ولتدخلت سريعاً لتفوت على حماس والحكومة هناك فرصة التفرد في قيادة القطاع. وحتى لا يأخذ الحسم شرعيته وتجذره في الواقع، وحتى لا يتشكل جيلٌ جديدٌ نظيفٌ من التلوث، وبعيدٌ لأول مرة عن عيون المخابرات الاحتلالية. وهذا ما أربكها فيما بعد، فالله سبحانه وتعالى شغلها عن غزة بهزيمتها في لبنان. وإلا كيف تصبر دولة الاحتلال على حماس أن تحكم القطاع؟ وأن تتعافى ساحة غزة من عملائها، ولو نسبياً؟ وأن تخسر أهم ركائزها وخدمها، في جهازى الأمن الوقائي والمخابرات؟

وما إن فرغت دولة الاحتلال، من صياغة جديدة لجيشها المهزوم، وإعادة تأهيله، وقد تنصلت من استحقاق التهذئة التي قادتها مصر، وهي تهذئة قامت على سياسة "القطّارة"، فعانى القطاع من هذه السياسة. فالبتروال ب"القطّارة"، والإسمنت، والحديد، والمواد الغذائية، والأدوية، كان دخولها إلى غزة ب"القطّارة". حتى إذا اندلعت الحرب، وخرجت المدافع عن صمتها، عاش القطاع أزمة ضروريات الحياة، وذلك حتى يخرج الشعب على حماس، وحتى يفتّ من عزيمة المقاومة، وحتى تصبح عاملاً من عوامل الهزيمة، ومدعاة لسقوط الحكومة المقاومة في غزة.



كانت نُذُر الحرب تلوح في الأفق، على الرغم من التطمينات من النظام المصري الهالك، ولأن سياسة "القطارة" أعطت إشارة واضحة أن الحرب قادمة على الأبواب لا محالة. وفي يوم الحرب نفسه، وقبل وقوعها، سَرَّح قائد الشرطة الشهيد توفيق جبر كثيراً من عناصره، وهو يُخَرِّجُ فوجاً من ضباط الشرطة، لشعوره بأن الضربة قادمة. وقبل يوم من هذه الحرب كانت وزيرة خارجية الاحتلال تسيبي ليفني Tzipi Livni تعلن قرار الحرب على غزة من القاهرة، وأحمد أبو الغيط واقف إلى جانبها. وبالرغم من التطمينات من النظام المصري الهالك لحكومة السيد إسماعيل هنية أن الحرب بعيدة أيامها، لكنها كانت تطمينات كاذبة، وعلى السنة كاذبة تتمنى أن تنام وتصحو، ولا تجد أثراً لحماس.

يوم الجمعة عصاراً، تُعلن ليفني قرار الحرب من القاهرة، ويوم السبت، وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، وإذا بالتطمينات تسفر عن 200 طلعة جوية، في لحظة واحدة، استهدفت أرض القطاع من شماله لجنوبه، وما أبقى على مؤسسات الحكومة، ولا مراكز الشرطة، ولا الجامعة الإسلامية... وحتى المساجد والمقابر والمدارس التابعة لوكالة الأونروا، لم تسلم من هذا القصف. بل هناك قصف وطلعات زادت عما في بنك الأهداف من أهداف. كانت الغارات متتالية، والذي ينظر إلى غزة، يراها كُتلاً من اللهب، وأعمدة من الدخان تناطح عنان السماء، فالقتل في كل مكان والجرحى والدمار غير المسبوق، وعائلات واجهت الموت، لم يخرج منها مُخَبَّر. وما نزل على غزة من القذائف والمتفجرات، أكثر مما نزل على لندن في الحرب العالمية الثانية. وأصبحت غزة بما فيها من سكان حقلاً للتجارب.

ويوم سبتهم، الذي احتلوا فيه على الحيتان، كنا في ساحة السجن عندما بدأت الحرب، وكنا على أخبار الأمس، وما إن رجعنا إلى الغرف، وإذا بالأخبار تغطي العدوان مباشرة من الجزيرة، والكل يتابع عن طريق الراديو وعن طريق التلفزيون. وبلغت بنا رغبة المتابعة... أن سماعة الراديو في أذن وسماعة التلفزيون في أذن أخرى... ولا نقوم إلا للصلاة المكتوبة، أو لتناول الطعام على وجه السرعة.

لقد صبر الناس على الصدمة الأولى، وشيئاً فشيئاً تأقلمنا مع ظروف الحرب، والحرب لا يصبر لها وعليها إلا المكيبث. وتابعتها ليلاً ونهاراً، وهيئات لعيوننا أن تنام!!! فغزة ما سكنت عنها المدافع يوماً، ونزيفها "سال بالدم أبطح"، ومشروعنا عليه حرب مسعورة، وجاؤونا من فوقنا ومن أسفل منا، وما بنيناها في أربعين سنة يتعرض

للإبادة، فاللهم لا تشمت بنا عدواً. فكثيراً من ينتظر الشماتة بنا، والدعاء هو سلاحنا، ولا نملك سواه. فالقنوت مع جميع الصلوات، ومع الصيام والقيام لأهل غزة... للمجاهدين والمقاومين، والصابرين المرابطين... ونلج بالدعاء، وما فاتني في كل صلاة أن أدعو على رئيس النظام المصري السابق محمد حسني مبارك، لا بارك الله فيه، ومن دعائي عليه: ”اللهم عليك بمبارك ونظامه، اللهم عليك بمبارك وزمرته، اللهم افجعه ببنيه، اللهم افجعه بأهله وذويه“.

لقد شارك النظام المصري الهالك في هذه الحرب، وكان ظنه أن حماس قريبة الجذور، وأن اقتلاعها هين. ولو أرادت دولة الاحتلال أن تصل مرة أخرى إلى قناة السويس واحتلال سيناء بكاملها لاستطاعت في ظل هذا النظام. ولكن غزة صبرت، وانتصرت، والذين راهنوا على هزيمتها بأووا بالإثم والفسل، ولا ترى على نواصيهم إلا الذل والانكسار. لقد كانت عصية على الاحتلال، وحتى على الاختراق. وبدلاً من أن يتضامن النظام المصري مع مصيبتها، زاد في حصارها؛ فأغلق معبر رفح أمام حركة الناس. وحتى الحجيج لم يسلموا من تداعيات هذه الحرب، فحجاج غزة مُنعوا من حضور الموسم قبل الحرب.

ومن يوم 2008/12/27 إلى 2009/1/18 والحرب على غزة تدور رحاها، من البر والبحر والجو، وبالقنابل المحرمة دولياً، والفسفور الأبيض الذي يهلك الحرث والنسل. وصبرت غزة، وصبر أهلها، واستبسلت المقاومة، وسخرت من هذا العدو المغرور. وقدمت الشهداء، وكثرت الجراحات، وأبيدت أحياء كاملة. وضرب أطفالنا أروع الأمثلة في الوعي والنضج، ومن استمع إلى الطفل أحمد وهو يلقي ببيانه، رأى فيه أنه أكبر من أي زعيم عربي، وأفصح منهم جميعاً... وكذلك الطفلة من عائلة السموني... التي رحل جميع أفراد أسرتها شهداء، رأيناها أبلغ في مصيبتها من العجائز... وجميلة عافاها الله.. كانوا جميعاً أكبر من كل جنرالات العالم.

وفي هذه الحرب، استشهد القادة العظام... استشهد العالم الرباني والقائد الميداني الدكتور نزار ريان، وفي صحبته أهل بيته. واستشهد القائد الهمام (أبو مصعب) الأستاذ سعيد صيام، وهو في ميدان المعركة يقوم بواجبه، بل وفي الخندق المتقدم، فستان ما بين سعيد صيام، وما بين الجالسين على مقاعد الهزيمة.



وانتهت الحرب، ولم تنته تداعياتها، فبدلاً من فكّ الحصار عن غزة، وقد اتخذت الجامعة العربية قراراً بهذا... زاد الحصار على غزة. والدولة العربية التي أسهمت "بالباع والذراع" في نصره غزة، ودعمها سياسياً ومالياً هي دولة قطر، ولا ننسى الفضل لجمهورية السودان ولبنان وسورية، والكويت، والإمارات، والأردن والجزائر واليمن وإيران.

لقد انتهت الحرب، وما حقق جيش الاحتلال من بنك أهدافه الحقيقية شيئاً. انتهت الحرب وما لحق بهذا الجيش إلا الخزي والعار، وتمرغت هيبتة بوحل الهزيمة مرة أخرى، على يد مقاومة إمكانياتها بدائية، ولا تذكر مع إمكانيات دولة الاحتلال.

وفي إحدى الجمع خطبت في إخواني، فقلت لهم عن الضربة الأولى، التي استشهد فيها قائد الشرطة والأمن، اللواء المجاهد توفيق جبر، الذي شرفه الله بهذا الإنجاز العظيم. والذي ادخره الله لهذا اليوم، وإسماعيل الجعبري الذي استشهد في اليوم نفسه، وهو المسؤول عن أمن الشخصيات، قلت: في معركة اليرموك يروى أنه كان عدد المجاهدين 36 ألفاً، وكانت الروم تعدّ ما يزيد على 250 ألف مقاتل، وانتصر المسلمون بعد أن استشهد منهم ما يقرب من ستة آلاف مجاهد، واندرحت الروم إلى غير رجعة، ولما رجع المجاهدون إلى فلسطين، حلّ بهم الطاعون في عمواس، فاستشهد من الثلاثين ألفاً الذين رجعوا من اليرموك عشرون ألف مجاهد. وكأن الله سبحانه، لا يريد باستشهادهم في أرض المعركة أن يطمع عدوهم في قتلهم. وكذلك الرجال الذين وفرهم الله عام الحسم، بدلاً من أن يكونوا وقوداً للحرب الأهلية، ادخرهم الله لهذا اليوم، واصطفاهم من هذا الميدان.

وتأتي الحرب بعدما تخلّص القطاع من المثبطين والمتأمرين، وإن بقيت منهم بقية استمرأت الخيانة، وتعاونت مع العدو في هذه الحرب. ولا غرابة، فقد سمعت أحد الأسرى يقول في غرفة الزيارة، لزائر له: أنه مستعد أن يذهب على ظهر دبابة إسرائيلية لتحرير غزة من حماس. وتأتي الحرب، وقد تمكنت كتائب القسام من السيطرة على مفاصل البلد، وأخذت بإمكانياتها من الأسباب ما تزود به عن حياض الوطن، وأن تتحمل مسؤولية الدفاع عن هذه الأمة، وعن الأمن القومي المصري. وبالمجهود المبارك، حاصروا الجواسيس، وقد لبسوا لباس جنود العدو... ودفع بهم العدو دروعاً له، فقتلوا وماتوا على الخيانة. ومنهم من استغل الحرب، لزعة الأمن الداخلي، فأذاقهم الله من القتل ما يستحقون.

أما هذا العدو الذي اهترأت أعصابه، وخنق وسائل الإعلام حتى الصهيونية منها، كي لا يُفصح جيشه، ولا تُفصح ممارساته، بلغ الجبن والخور بجنوده أن يتحفظوا (يلبسوا الحفاطات)... كما يتحفظ الأطفال الصغار، وألا يبرحوا دباباتهم! ﴿وكفى الله المؤمنين القتال، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾³⁹.

مفاوضات في "النقب":

بعد أن فشل أولمرت، رئيس وزراء دولة الاحتلال، في عقد صفقة تبادل الأسرى مقابل الجندي شاليط، توجه إلينا الشاباك، يطلب منا الوساطة في هذا الأمر، ففي 2009/3/15 جاءني ضابط استعلامات السجن بعد عدد المساء، وقال: غداً أنت راحل إلى "النقب"، وكان ذلك.

في الصباح التقيت الأخوين الحبيبين محمد جمال النتشة وعبد الخالق النتشة، واستغربنا من هذا اللقاء، وقد جاؤوا بأبي همام من العزل، وبعد أن قيّدونا سارت بنا "البوسطة" إلى سجن ريمون، لنكون في صحبة الشيخ الحبيب حسن يوسف، والذي أطلق سراحه لاحقاً بتاريخ 2011/8/3. ومن هناك انطلقت بنا "البوسطة" إلى سجن النقب، وبعد التفتيش، كان في استقبالنا الشيخ صالح العاروري، ولفيف من الإخوة الكرام، فيهم جميع أعضاء المجلس التشريعي من التغيير والإصلاح، وجموع الأسرى من جميع الفصائل.

لأول مرة أدخل "النقب"، وكانت فرصة أن ألتقي هذه الجموع من أبناء حماس. فكانت لي زيارات على جميع الأقسام، وكانت الملاحظة المثيرة... مع أنني على علم بحجم المعتقلين داخل السجون، لكن المعاین ليس كالسامع، فوجدت جُلَّ جسم حماس في الضفة الغربية موجود في سجن النقب، مع العلم أن جميع السجون، فيها حضور قوي لحماس، إن لم يكن النصف فدون ذلك بقليل. لقد وجدت الرئتين اللتين تتنفس من خلالهما الحركة في سجن النقب، وقلت إن الضفة الغربية سجيّنة في "النقب". إنهم خيرة رجال هذا الشعب، وعناوينه ورموزه. وإن ظلم الاحتلال لهذه الشريحة تحت مظلة السجن الإداري، ورأيت، وسمعت أن كل هذا الظلم، لن ينال من عزيمة هؤلاء الرجال، ولن يبدد ثقة الشعب الذي ينتمون إليه بهم. فهم فئةٌ لكل من يفِيء إليها، وهم أهل الصبر والثبات.

³⁹ القرآن الكريم، سورة الأحزاب، آية 25.

وعلى صعيد الوساطة، جاء رجلان من الشاباك إلى السجن، فاجتمعا بنا وأعطونا تصورهم عن إمكانية نجاح الصفقة. وطلبوا منا أن نفتح الخطوط مع كل مَنْ يعينه الأمر، مع الإخوة في الخارج ومع غزة، لكن قبل ذلك تشاورنا جميعاً على صعيد قيادة الحركة، عن السقف المقبول عند إخواننا لهذه الصفقة، واشترطنا على الشاباك أن يأتينا بالأخوين توفيق أبو نعيم ويحيى السنوار. وفعلاً حضرا، واجتمعنا بهما، وكل واحد منا أبدى رأيه بصراحة، وإن كان هناك تفاوت في الآراء، لكن الجميع حرصوا على أن تتجح الصفقة، وألا يظلم فيها أحد.

في النهاية نفض أولرت يده من الصفقة، وعلى الرغم من أنه خاض حربين أيام حكمه، وهو من اتخذ قرار الحرب في الجولتين؛ فإنه عجز عن أن يتخذ قراراً بشأن صفقة التبادل. خاض الحربين من أجل الجنديين، ثم تخلى عنهما، لأنه لا يريد أن يدفع الثمن. بعد أن انتهى الأسبوع وفشلت الجهود رجعت إلى ”نفحة“، بالرغم من توسط الأسرى لدى إدارة السجن لكي أبقى هناك، لكن المانع هو تحفظ الشاباك على وجودي في ”النقب“، كما أعلمني الشيخ صالح.

سجن النقب في بطنه وأحشائه آلاف الأسرى من جميع الفصائل، ويتميز في معظم أقسامه، بأنه مفتوح على الساحة ليلاً ونهاراً، وأجهزة الهاتف المحمولة كثيرة... وكثيرة جداً. أما أمير هذه القلعة فهو المجاهد عايد دودين، شقيق الأخ موسى دودين، وبيتها بيت كرم وجهاد.

عند وصولي إلى ”نفحة“ ثانية، استبشر الناس، ويريدون المزيد من أخبار الصفقة، وإلى أين وصلت. والجواب أنه ليس في جعبتنا شيء جديد، والأمر بيد الله، والحقيقة أنها حالٌ صعبةٌ على الجميع، وربما أن للظلم بصمات باقية عند بعض الأسرى، قد تكون هي الحائل دون إتمام الصفقة. وكنت أقول من خلال خطبة الجمعة إنه يوجد ظلم، لا بد للمظلومين أن يتحرروا منه.

انتظار الفرج:

يقال إن انتظار الفرج عبادة. فبعد أن وضعت الحرب أوزراها، وأخذت غزة تلتقط أنفاسها، وأخذ الأسرى يتابعون هذه الحرب، ومنهم من تنظيم فتح مَنْ وصل به التشفي، وتمنى على الدبابات الإسرائيلية أن تقضي على حماس، ومنهم مَنْ تمنى

أن تصل "إسرائيل" إلى الجندي الأسير شاليط، حتى لا يكون إنجازاً لحماس؛ حتى ولو بقي مئات الأسرى من تنظيم فتح، إلى عشرات السنين الأخرى يقبعون في ظلمات السجن.

لكن كل هذه التمنيات ماتت في صدور أصحابها، وأخذت غزّة تستعيد عافيتها، وقد خرجت من هذه الحرب أقوى إيمانياً، وعلى كل الصعد مما كانت عليه. وأخذت تنفض عنها غبار المعارك، وتعالج الأضرار التي خلفتها هذه الحرب، على الصعيد النفسي للمليون ونصف المليون مواطن، والإنساني والاجتماعي والبيئي والصحي كذلك... بين يدي حصار لا يزال قائماً من العرب، قبل "إسرائيل" والغرب؛ لأن العدوان على غزّة عرّى حالة الاهتراء والتردي، التي وصلت إليها هذه الأنظمة؛ وخصوصاً النظام المصري، الذي سخط عليه شعب مصر، قبل غيره من الشعوب.

ولسنا بمعزل عن كل هذه الهموم، وقد تنادوا من كل صوب لنصرة غزّة، وعقدوا المؤتمرات لإعمار ما دمرته الحرب، ولتتعافى غزّة من هذا الدمار، ومضى على الحرب ما يقرب من سنتين، والحال على ما هي عليه. والمال الذي يأتي إلى غزّة يذهب إلى رام الله أولاً، حتى تأخذ نصيبها على حساب البائسين من الفقراء. تنادى المخلصون من كل مكان أنه أن لغزّة أن تنتعش، وقد ثبت للطعم الحاكمة أن غزّة أكبر من الهزيمة، وأكبر من الحصار... وعصية على الانكسار، وهي أكبر منهم جميعاً، الصالح والطالح. وعلى أبناء الأمة أن يراهنوا على حماس، وأن يثقوا بأن مشروع المقاومة هو خيار الأقوياء، وأن مشاريع التسوية هي خيار الضعفاء.

ومن بعد هذه الحرب، وعند شواطئ غزّة وعلى حدودها، وقف التاريخ احتراماً وإكباراً للشعب غزّة المقاوم، كما وقفت الشمس لنبي الله يوشع بن نون عليه السلام وقف التاريخ إجلالاً لفاصلة زمنية من فواصله، حملت في طياتها أسطورة في الثبات، لن تُمحي من ذاكرته أبداً، وشهد على انتصار أظهر ظاهرة، وقد خذلتها أنظمة الردة، وتأمرت عليها. وشهد على مواقف العزة، التي أبدأها أطفالنا، وما كان للجالسين على مقاعد الهزيمة، أن يبلغوها بكل جيوشهم، وما لديها من عتاد. وإن الأقسام مهما تأمروا، فهم أقزام، وهم كما قالت العرب: "كمن رضي من الدأماء بالوشل"، والدأماء هو البحر ونحن أمواجه إن شاء الله، والوشل هو الماء القليل، يتحلب من الصخر، فنحن بحر هذه الأمة، وأمريكا هي الوشل لهذه الأنظمة.

ولقد عادت حياتنا إلى رتابتها، ومرت الأيام، ولا يزال حديث الأسرى عن الحرب وتدايعياتها... ففي كل يوم من خلال النقال تتجدد الهموم، وتأتيك الأخبار بقائمة من الشهداء لإخوة عندنا، فالمجاهد شريف زيادة⁴⁰ استشهدت أمه وأخته، وخميس عقل⁴¹ استشهد أحد أقربائه، وآخرين ممن تعرضوا لأضرار هذه الحرب، ولا تجد الناس إلا محتسبين ومسترجعين، والحمد لله.

ومن جانب آخر، تحدث الناس عن قيم هذا الشعب العظيم وأخلاقه، فاحتضان المقاومة وتزويد عناصرها بالطعام والشراب، والتكافل الاجتماعي بين الناس في الطعام والسكن، والحديث عن الذين ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾⁴²، ولا غرابة، فقد جاد الناس بدمائهم وأرواحهم.

مرت علينا الأيام، ومن أسرى غزة من اقترب فرجه، بعد أن مضى على اعتقاله ثمانية عشر عاماً، فالإخوة ضياء الشرفا، وعبد الناصر البحر، ومحمد عاصم الحشاش، وعطا أبو خبيزة، طالت عليهم أيام السجن، وغزة تنتظرهم على شوقٍ أحرَّ من الجمر، بعد هذا النصر، وخرجوا جميعاً رضي الله عنهم وأما المجاهد سليم الجعبة، فالقدس وأهلها في استقباله على بوابة السجن، بتاريخ 2010/4/20 يوم العتق من السجن، بعد أن قضى ستة عشر عاماً.

وبعد أن فارقتنا سليم في رحلته الميمونة، وعلى رغبة إخواني في قسم (11) لأعيش بينهم ما تبقى من قليل الأيام، ودعت إخواني في قسم (13) وأبو نضال حسان يقول لي: لا تعد، وبقيتهم يؤمنون من ورائه. وما كان في ظني أن أعود قريباً. وبناءً على طلبي، وطلب إخواني من فتح، النقيت الإخوة رمزي عبید وإياد الفروخ وياسر أبو ترك، من

⁴⁰ شريف حسين زيادة (1971-): ولد في مخيم البريج وسط قطاع غزة لعائلة هجرت من قرية الفالوجة سنة 1948. متزوج وله أربعة من الأبناء. من مؤسسي ألوية الناصر صلاح الدين. اعتقل في 2005/10/5 في النقب في أثناء محاولته وعدد من إخوانه للانتقال للضفة الغربية بعد الاندحار الصهيوني من القطاع من أجل نقل الخبرات العسكرية الصاروخية إليها. حكم بالسجن المؤبد مرتين وثمانية أعوام لمشاركته في عدد من العمليات وإطلاق الصواريخ على مستوطنات الاحتلال، خرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

⁴¹ خميس زكي عقل (1966-): ولد في مخيم النصيرات في قطاع غزة. شارك في فعاليات الانتفاضة الأولى من خلال جهاز الأحداث التابع لحماس. انتظم في صفوف كتائب القسام منذ نشأتها، وشارك في عدد من عملياتها ضد قوات الاحتلال الصهيوني وعملائه. اعتقل في 1992/6/7 والقسامي مازن النحال، إثر إصابتهما في اشتباك مع الجنود الصهاينة. حكم عليه بالسجن 16 مؤبداً، وخرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

⁴² القرآن الكريم، سورة الحشر، آية 9.

قسم (14) ولساعة والحديث بيننا عن هموم السجن، أوصيههم ويوصونني، وفي الختام تعانقنا عناق الوداع، على أمل اللقاء في الخارج، إن شاء الله.

نزلت قسم (11) على غرفة الأخ الحبيب فهد الزقزوق، وفيها الرجال من أبناء هذه الدعوة، وهذه الحركة من المجاهدين، محمد عثمان، وسعيد سكيك الحافظ لكتاب الله، وأيمن الشوا. ومن خلال ساحة القسم التي تتسع لـ 120 مجاهداً حمسواً، التقيت بقية إخواني هارون ومجدي الريماوي، وفي الساحة كان لقاء الأحبة جميعهم أبو النمر الشراطة، وماهر زقوت رفيق درب عماد عقل، وعماد الصفاطوي، وخميس عقل، ومؤنس العقاد، والقودة، والحلاق، وأسأل الله أن يفرج كربهم.

وقبل الإفراج بيومين، جمعنا مكتب ضابط السجن بالأخ الحبيب والابن البار أبي إبراهيم السنوار، الذي كان يدعو لي بهذا الدعاء: "أسأل الله أن يكون بك حفيماً". فودعني ووصاني وكان للعيون في حديثنا نصيب... لأنه لا يُسمح باللقاء بعيداً عن عيني الضابط.

خرج سليم الجعبة من السجن باحتفال مهيب، وقد استقبله الأهل والأصدقاء على بوابة السجن، وكل هذا في سجن نفحة الصراوي، وعاد بمن معه في ركب مهيب إلى مدينة القدس. وبعده بشهر على التمام، كان يوم خروجي من السجن، بعد قضاء أربع سنوات، بتاريخ 2010/5/20. وهي المرة الثانية، بنفس التاريخ أخرج من السجن، ففي المرة الأولى يوم الإثنين 1985/5/20، في صفقة التبادل، وهذه المرة يوم خميس 2010/5/20، على ذمة التشريعي، وما بينهما 25 سنة، والمعهود أن يفرج عني من السجن الذي أنا فيه نفسه، وقد أعد الأهل والأصحاب عدة الاستقبال، وفيهم المجاهد سليم الذي خرج قبل شهر من السجن، هو والشقيقان المجاهدان أمجد ويعقوب أبو عصب من رتب لهذا، وشيخهم ورفيقهم في خدمة أهالي الأسرى المجاهد أبو أشرف الزغير.

الخروج من السجن والقرار بإبعادي:

عند المساء من ليلة الإفراج، وإذا بإدارة السجن تبلغني أن الإفراج عني سيكون من سجن الرملة، ويقتضي مني في الساعة السادسة صباحاً أن أكون جاهزاً للسفر إلى سجن الرملة. وفي مرة سابقة لليلة واحدة رُحلت من سجن مجدو إلى هدريم ومنه خرجت. على كل حال، اتصلت بالأهل عن طريق النقال الموجود عندنا في الغرفة، وقلت لهم: انتظروني على باب سجن الرملة، وفي ذلك راحة لكم وأقرب للطريق.

في الساعة السادسة والنصف صباحاً من يوم الإفراج وضعوا قيدين في معصمي، وآخرين في رجلي، وسألتهم عن السبب من وراء هذا الإجراء، على صعيد السفرية، وعلى صعيد القيود فقالوا هذا قرار من سلطات عليا. فاعتليت ”البوسطة“، وسارت بنا وظني أنني إلى الرملة. ولكن في الطريق بعدما سمعت وسمع ضابط ”البوسطة“ من الإذاعة العبرية أنه تم الإفراج عن الشيخ أبو طير... فقال لي: ميروك، ومن القدس سيفرج عنك، فطلبت منه عن طريق جهاز نقله، أن يتصل بالأهل ليحيطهم بالأمر، لكنه رفض واعتذر. وبعد ساعتين ونصف من السرعة العجيبة، وصلنا إلى المسكوبية. وعلى عجل، وفي أقل من ربع الساعة تم الإفراج عني، دون أن يعيدوا إلي بطاقة الهوية، فطلبتها منهم، فقالوا: ليست عندنا، فقلت لهم، كل ما يخصني في الأمانات. لكن دون جدوى فخرجت بلا هوية.

ومشياً على الأقدام إلى حيّ المصراة مسافة نصف كيلومتر. عند الإشارة الضوئية استوقفت سيارةً للأجرة، واستأذنته أن يوصلني إلى صور باهر فأمر طوبا، فتقبل مُتفضلاً، فاستأذنت منه هاتفه المحمول، فعرفني ورحب بي وهنأني بالسلامة، فشكرت له، وهو ابن البلد مقدسي، ولم يتقاضَ أجرة الطريق، وهذه أخلاق هذا الشعب، ومعذرة لأنني أجهل اسمه.

اتصلت بالأهل، والأخ سليم، والنائب أبو مجاهد، وقلت لهم: أنا في الطريق إليكم، أنا بالقرب من باب الخليل، فرحبوا بي حتى وصلت على مشارف صور باهر، وبالقرب من بيت المجاهد أبي أحمد عطون كان الاستقبال من الناس، من القريتين ومن أهل القدس، والوزير خالد أبو عرفة، والنائب أحمد عطون، والإخوة يعقوب أبو عصب، ورامي الحلواني، وأبنائي والشعب الطيب الكريم المعطاء، وعادت الصحافة من طريقها إلى الرملة، وشيخهم إلياس كرام، الذي يتميز بوطنيته ومصداقيته.

لقد استقبلنا بيت المجاهدين، وأهل الكرم من آل عطون في ديوانهم، ثم مشياً على الأقدام لأكثر من كيلومتر إلى أم طوبا، بصحبة المهندس خالد أبو عرفة، وهو أكبر من الوزارة، والنائب أبو مجاهد عطون ولفيف من الكرام. واستقبلتنا أرحامنا وأبنائنا... وشكر الله لهم جميعاً، وجعل ذلك في ميزان حسناتهم. وما لبثت إلا قليلاً؛ لأن برنامج الإخوة يقتضي الذهاب إلى جبل الزيتون، المطل على المسجد الأقصى، لصور تذكارية مع الأقصى، هدايا لمن في سجون الاحتلال.

وفي تمام الساعة الواحدة ظهراً من ذلك اليوم، وإذا بشرطة المسكوبية تطرق علينا الباب ببلاغ يطلب مني الحضور إليهم الساعة الخامسة مساءً، وليس في واردهم، وغير معتبرين للناس ومشاعر الناس، التي تؤم البيت للتهنئة والسلام. فذهبت إليهم، ولثلاث ساعات حجز، حتى يقولوا لي: أنت غير مرغوب بك في هذا البلد، وفترة إقامتك من اليوم 2010/5/20، إلى 2010/6/19، ترتب فيها أحوالك، وإلا فأنت خارج على القانون، ومتسلل لـ "أرض إسرائيل"؛ لأن هذا قرار وزير الداخلية، وقائد الشرطة يُنفذ. قلت له: أنا ابن هذه البلاد، وفيها ولدت ونشأت وترعرعت، وعائلتي لأكثر من 500 سنة في هذا البلد، وتدعي أنني طارئ ومتسلل، وأنت الذي أتيت مغتصباً قبل 40 سنة، تدعي أنها أرضك، وتطردني منها. فقال: هذا ليس قراري، هذا قرار وزير الداخلية، فاستلمت البلاغ، وطلب مني التوقيع عليه. فرفضت ذلك وقلت الأمور واضحة لا تحتاج إلى تفسير، فالقرار سياسي، وليس قانونياً. وحتى المحكمة العليا الإسرائيلية لن تنتصر لنا ولا مرة.

غادرت المسكوبية، والمستوطنون في الخارج ينتظرون للانقضاض عليّ، وسمعت منهم الأذى، ولا شك في أن جهاز الشرطة، هو من أعلمهم بحضوري، وباسمي نادوني يا كذا... يا كذا. ولولا الحياء لأسمعتهم، وضابط الشرطة مع المحامي يطلبان مني الانضباط. وجاءت السيارة التي أقلتنا على وجه السرعة، بعد أن وقفت الشرطة حاجزاً بيننا وبينهم، وانطلقت بنا إلى البيت والناس ينتظرون.

تداولنا الأمر مع إخواننا، وبحضور الأخ المحامي فادي القواسمي، واستقر رأي الإخوة خالد أبو عرفة، وأحمد عطون، ومحمد طوطح، وقد شملهم قرار وزير الداخلية، اللجوء إلى مقر الصليب الأحمر في الشيخ جراح. وكان لي رأي أن أغيب عن الأنظار والعيون في الليل، وعزمت أمري على المبيت خارج البيت، إلى يوم أن اعتقلت؛ لأن تطمينات الرئيس عباس أعطت أملاً، من خلال وعد وعده إياه رئيس الشاباك الإسرائيلي، ومن خلال المؤتمر الصحفي، ولقاءه الإخوة النائبين أحمد عطون ومحمد طوطح والوزير خالد أبو عرفة بصحبة الدكتور ناصر الدين الشاعر، والدكتور عمر عبد الرازق، بناءً على طلب أبي مازن. ولم أحضر ذلك الاجتماع لا لشيء، ولكن لعدم وجود وثيقة مرور، وعند أي حاجز من الممكن أن يقال لك: بدون بطاقة هوية لن تدخل. من خلال هذا المؤتمر قال الرئيس عباس هؤلاء اليوم نواب عن الشعب الفلسطيني، هؤلاء اليوم لا ينتمون لفصيل سواء فتح أم حماس... إنما هم نواب عن الشعب. ووقع على ذلك إخواننا، بأننا نواب عن القدس، وعن الشعب الفلسطيني.

تجاوزت حسب ادعائهم، عشرة أيام بعد الفترة التي حددها، وكنت مع إخواني في بيت الوزير خالد أبو عرفة، لاجتماع جمعنا مع الأستاذ المحامي فادي القواسمي، على وليمة غداء. وفي طريق العودة مع الأخ النائب أحمد عطون، وإذا بكمين من الشرطة في الشارع الرئيس، المؤدي إلى وسط بلدة صور باهر، فاستوقف سيارتنا واقتادوني معتقلاً إلى شرطة المسكوبية، وهناك قالوا لي: وقع على كفالة ورقية بـ 100 ألف شيكل (نحو 27 ألف دولار)، وغادر إلى رام الله. فقلت لهم: لن يكون. فذهبوا بي إلى المحكمة بحجة أنني متسلل لـ "أرض إسرائيل"، وخرج عليّ القاضي الأول بحكمه أن أدفع 350 ألف شيكل (نحو 94 ألف دولار) نقداً، ووجهاء من القدس كفلاء على رحيلي إلى رام الله بلا عودة. فرفضت ذلك، ومكثت في السجن خمسة أشهر وزيادة، إلى أن جاء قرار المحكمة أنها لا تستطيع أن تبقي علي في السجن هذه الفترة؛ لأن عقوبة أي متسلل لا تزيد على شهر. فأرادت النيابة أن تدخل بالسياسة إلى المحكمة، فقالت القاضية، لا تدخل بالسياسة على القضاء، وأمام قرار المحكمة أنها لا تستطيع أن تبقي عليّ في السجن، جاءت الشرطة وحملتني إلى حاجز بيتونيا العسكري، وأخرجتني قسراً من السجن إلى المحكمة، ثم إلى رام الله، كان ذلك يوم الأربعاء بتاريخ 2010/12/8⁴³.

في الاعتقال السابع وربيع الشعوب:

بعد أن اقتادتني الشرطة مكبلاً إلى المسكوبية، مساء الأربعاء 2010/6/30، وانتهت من عرضها الرخيص، وكان مني الرفض، عزلتني شهراً كاملاً في سجنها على ملف مدني، لأول مرة بالرغم من أنهم تعاملوا معي كسجين أمني. ومن خلالها كان أكثر من يزورني الأستاذ المحامي فراس صباح، شكر الله له.

والعيش في المسكوبية ممرض؛ لأن الرطوبة أكلت من جدرانها، وأبنية قديمة جداً قبل العثمانيين، وهي مستأجرة من الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. وبعدما لم تفلح المحاكم في إجراءاتها، تمّ نقلي إلى سجن إيشل في بئر السبع، وهناك استقبلني أبنائنا المجاهدون، في قسم يتسع لـ 140 من حماس والجهاد الإسلامي، وكان ذلك مع ساعات المساء والأسرى في غرفهم، إلا عمال النظافة في القسم، والناطق باسم السجن المجاهد

⁴³ تمّ احتساب سعر صرف الدولار مقابل الشيكل الإسرائيلي وفق معطيات بنك "إسرائيل" المركزي في سنة 2010 الذي حدد سعر الصرف بـ 3.7319.

جمال الهور، قائد مجموعة صورييف. واستقبلني مرة أخرى شقيق روعي (أبو النور) نائل البرغوثي، وأبو إبراهيم السنوار، وزهير السكافي، وليلي أبو أرجيلة، وعماد صقر، وعبد الرحمن شديد، وعلي العصافرة⁴⁴، والشقيقان حازم ومنتصر أبو رجب، وبارك الله في الجميع. وكان في الاستقبال أيضاً، ولا أستغني عن ذكرهم، الشقيقان عثمان ومعاذ بلال⁴⁵، أبناء الداعية سعيد بلال، رحمه الله، ولدي محمد الرشق، وفارس القواسمي، والمجاهد محمد العمصي، الأسير الوحيد من كتائب القسام في ملحمة الفرقان.

وفي يوم الجمعة الأول استقبلني الحبيب (أبو إبراهيم) السنوار بخطبة جمعة، أحاطني من خلالها بعاطفته، ومثلي عند سماعه لهذه العاطفة، عليه أن يتقي الله، والله أعلم بسريرتي، وأسأل الله أن يذكره في ملائ خير مني.

وجاءنا رمضان بظلاله الندية، مع أن درجة الحرارة في صيف ذلك العام ازدادت خمس درجات مئوية. وأنا من الذين يستغنون عن المراوح، لكن هذه المرة كانت وجهاً لوجه. وصمنا رمضان مع الكرام، وكنت إمامهم في الصلاة، وفي صلاة التراويح على وجه الخصوص؛ لأنني كنت حريصاً أن أختتم القرآن من خلال الصلاة، غيباً عن ظهر قلب والحمد لله، وفي ليلة 27 رمضان، ختمت بالأجزاء الأربعة الأخيرة في ثمان ركعات، وفي أقل من ساعتين والحمد لله. وكل ليلة كان عماد صقر يبعث لي مع الإفطار بغلاية قهوة سادة، من غرفته كراماً منه وتفضلاً... سوى صحن الفول.

⁴⁴ علي محمد العصافرة (1982-): ولد في قرية بيت كاحل قضاء الخليل. التحق بكلية الآداب في جامعة الخليل، ونشط في صفوف الكتلة الإسلامية في الجامعة. التحق بكتائب القسام ونفذ عملية كرمي تسور بالقرب من مدينة حلحول شمال الخليل. اعتقل في 2002/10/28، وحكم عليه بالسجن المؤبد أربع مرات. شاعر، صدر له ديوان اللؤلؤ والمحار وهو في السجن. خرج في صفقة فداء الأحرار يوم 2011/10/18. انظر: علي عصافرة، تحرير وتعليق أسامة الأشقر، ديوان اللؤلؤ والمحار (دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، 2010).

⁴⁵ عثمان سعيد بلال (1975-): ولد في مدينة نابلس. والده أحد قيادات جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين. نشط في صفوف حركة حماس في أثناء الانتفاضة الأولى، واعتقل لذلك في سجن الصهاينة. انتظم في صفوف كتائب القسام ضمن مجموعات كتائب الشهيد عبد الله عزام، ثم عمل بصحبة الأسير عبد الناصر عيسى على التجهيز والإعداد لعدد من العمليات تحت إمرة الشهيد يحيى عياش. أسهم في الإعداد والتجهيز لعملية الاستشهاديين لبيب أنور وسفيان جبارين. اعتقل في 1995/8/20، وحكم بالسجن المؤبد 15 مرة.

معاذ سعيد بلال (1971-): ولد في مدينة نابلس. والده من كبار قادة الإخوان المسلمين في فلسطين. التحق في كلية الشريعة بجامعة النجاح، وانتظم في صفوف حماس، ونشط في صفوف الكتلة الإسلامية في الجامعة، واعتقل لذلك عدة مرات في سجون الاحتلال. عمل بصحبة الشهيد عادل عوض الله على إعادة تنظيم صفوف كتائب القسام في نابلس ونظم الشهيد نسيم أبو الروس وجاسر سمارو ليدرهما الشهيد محيي الدين الشريف على تصنيع المتفجرات. قاد "خلية شهداء من أجل الأسرى" والتي نفذت خمس عمليات استشهادية في القدس سنة 1997. اعتقل في 1998/1/10، وحكم عليه بالسجن المؤبد 26 مرة و25 عاماً.

جاءنا العيد، وخطبنا أبو إبراهيم السنوار، يرعاه الله، وطاف بنا حول عاطفة العيد، وماذا يعني العيد في حياة المسلمين، وعرج على رحلة الصيام، وعلى ما في طياتها من خير ومن تزكية للنفس البشرية، وعلى ما أظن صلى بنا صلاة العيد المجاهد عبد الرحمن شديد.

وفي هذا السجن خطبت الجمعة وقلت لإخواني: إن عوامل التغيير في طريقها إلى المنطقة، ولن تصبروا إلا قليلاً، وإن هي إلا خمس سنوات، وإذا بانقلاب إقليمي يأتي على هذه الأنظمة، فلا يبقى منها ولا يذر. وما هي إلا خمسة أشهر بدلاً من خمس سنوات، وإذا بالشعوب قد غضبت غضبتها، وحطمت أكبر حاجز كان يعترضها ويقف في طريقها... ألا وهو حاجز الخوف، الذي اكتوت به الشعوب، والذي استشرى في المجتمعات، وشكل سوط عذاب، طوال قرنين من الزمان.

وبعدما خرجت من السجن، وأبعدت إلى رام الله، وإذا بربيع الثورات على الأبواب، ومن وكر العلمانية والحرب على الله في تونس، ومن حيث كان الأذان لا يرفع من المساجد، لأكثر من ربع قرن، انطلقت الشرارة وانتصرت إرادة الشعب... ومن تونس قال شاعرها أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر

وهرب ابن علي، رئيس الجمهورية التونسية، وانتقلت العدوى إلى مصر، ويشاء الله لثورة مصر أن تكون أعظم ثورة سلمية، ويسقط الطاغية، والدائرة تدور رحاها على الجميع إن شاء الله. ومن السجن اتصل بي المجاهد عبد الرحمن شديد، وذكرني بالذي خطبته فيهم... وأسأل الله أن يعجل لهم بالفرج.

وبعد شهرين مكثتهما في سجن إيشل، جاءني النقل إلى سجن نفحة مرة أخرى، لألتقي الأخ المجاهد والابن الحبيب علي العامودي. لكن قبل ذلك اقتحمت علينا غرفتنا، بعد عيد الفطر مباشرة، قوة من وحدات التفتيش في السجون، على معلومة أن عندنا هاتفاً محمولاً، وما كان عندنا، ولا حتى في القسم أبداً، ولكن هوس ضابط الأمن، كما في مرة سابقة، أنه كيف يعقل أن تكون غرفة الشيخ أبو طير بلا هاتف محمول؟ فتشوا الغرفة وخربوها وجعلوها خليطاً، ونفضوا كل ما فيها... وفتشونا عراً. ورفعت

السجون، وعلى الخصوص النقب وعسقلان ونفحة، احتجاجاً على فعلتهم لقائد المنطقة في مصلحة السجون، وجاءني معذراً، ووجه كلاماً قاسياً إلى ضابط الأمن.

في نفحة عشت شهرين وأياماً، والتقيت أحبابي مرة أخرى، وعشت وعلي العامودي في غرفة واحدة، وإحسان الصفدي⁴⁶، وسعيد شلوف، وعشت مع حبيب الروح عماد صقر، ومع ولدي وحبيبي أكرم الصعيدي⁴⁷، والمجاهد أكرم قاسم⁴⁸، هذا الرجل الفريد في أدبه، وحسن خلقه.

الدعاء وكراهات الأسرى:

من بركات الدعاء، أن والدة الأخ المجاهد إيهاب قنن من خانيونس، والذي يقضي حكماً مؤبداً، وكان قد امتنع لأيام عن الحديث مع عائلته، احتجاجاً أو ما شابه ذلك. ولا شك في أنه يتألم لذلك، ولكن أين قلبه من قلب أمه؟ الأم تنتظر مكالمته، وتتوجع لهذا الجفاء، وأعرف ولدنا إيهاب أنه من أهل الوفاء، وكانت أمي رحمها الله، تقول: "قلبي على ولدي، وقلب ولدي على حجر".

انتظرتُ الأم الموحوجة ولدها، وتحديث من خلال برنامج رسائل الأسرى، عبر قناة الأقصى إلى ولدها، وقالت لكل من يسمع: قولوا لإيهاب، أن يُسمعنا صوته ويطمئننا عن حاله، كان ذلك بتاريخ 2010/12/1، يوم الأربعاء مساءً. وكنت في نفحة وإيهاب في غرفة قبالتنا، والأسرى ينادون على إيهاب، يا إيهاب أمك على الهواء تتحدث... فيذهب مسرعاً ليستمع إلى أمه. الأم الفاضلة تتحدث، وتلقي بسلاماتها عبر الأثير لولدها ولجموع الأسرى، وتدعو الله أن يعجل بالفرج، والأم تدعو وتبكي، ويسمع الأسرى

⁴⁶إحسان علي الصفدي (1975-): ولد في قرية جماعين قضاء نابلس، اعتقل في 2001/8/23، وحكم بالسجن مدى الحياة. خرج في صفقة وفاء الأحرار في 2011/10/18.

⁴⁷أكرم زكي الصعيدي (1980-): ولد في مخيم النصيرات وسط قطاع غزة، ومع بداية انتفاضة الأقصى التحق بصفوف حركة حماس. انضم لكتائب القسام وشارك في عمليات إطلاق الصواريخ ضد مستعمرات الاحتلال. في 2003/6/27 اقتحمت قوات صهيونية قرية المغرقة وحاصرت منزل الصعيدي، فاشتبك عدد من أفراد العائلة مع القوات المهاجمة، اعتقل على إثرها أكرم وعدد من أفراد أسرته واستشهد شقيقه زكريا. حكم على أكرم بالسجن لمدة 25 عاماً، وخرج في صفقة وفاء الأحرار في 2011/10/18.

⁴⁸أكرم عبد الله قاسم (1976-): ولد في منطقة بئر نعجة شمال قطاع غزة لأسرة تعود جذورها لبلدة البطاني الشرقي. درس العلوم السياسية في الجامعة الإسلامية في غزة. استغل عمله في أحد أجهزة السلطة الفلسطينية الأمنية كغطاء للعمل منسقاً بين قيادة كتائب القسام في الضفة الغربية وقيادة القسام في قطاع غزة، وعلى رأسها الشهيد صلاح شحادة. اعتقل من مدينة رام الله في 2002/4/2، وحكم بالسجن لمدة 30 عاماً. خرج في صفقة وفاء الأحرار في 2011/10/18.

بكاءها، وهي تدعو على الاحتلال، وتقول بالضبط هذه العبارة: ”اللهم كما حرقوا قلوبنا... احرق قلوبهم“ اللهم آمين.

إنه دعاء أم، من قلب مكلوم، ومع الغروب، وما هي إلا ساعات، وإذا بغابات الكرمل أو أحراش الكرمل تندلع فيها النيران، وتقف دولة الاحتلال عاجزة أمام هذا الحريق، الذي أتى على الأخضر واليابس، وأتى على أكثر من 40 ألف دونم [40 كم²] من الأشجار الحرجية، التي تشكل رئة فلسطين.

ففي الساعة العاشرة صباحاً من يوم الخميس 2010/12/2 بدأ الحريق وأحاط بسجن الدامون، وذهبت قوة من دورة ضباط لمصلحة السجون، بعد يوم من تخرجهم، إلى هناك... لمساعدة القوة الموجودة في السجن، لترحيل الأسرى، وإذا بالنيران تحاصر القوة القادمة للنجدة، فتأتي عليهم جميعاً، وهم يزيدون على 45 ضابطاً، وليس من طبعنا التشفي، بل تعاملنا بأحسن الأدب مع هذه الحادثة، وأظهرنا تعاطفنا مع ضباط السجن عندنا. فأين إنسانيتهم — إن كان عندهم إنسانية — من إنسانيتنا؟ وقال الأسرى فيما بينهم، هذه دعوات المظلومين، هذه دعوة والدة إيهاب قنن، رضي الله عنها.

وفي حادثة أخرى من كرامات المظلومين، يقول الأخ المجاهد نضال زلوم، وكنيته أبو أنس: وقفت من الليل، وصليت وناجيت ربي، ورفعت إليه أكف الضراعة، ثم قلت: يا رب، نريدك أنت، لا نريد سواك، نريدك أن تدافع عنا وأن تتولى أمرنا، ولا نريد من البشر من يدافع عنا، لا نريد محاكم ولا محامين. اللهم يا ربّ ارض عن الشيخ أبي طير، وفرج كربه واجعل علامة الرضا والفرج سقوط طائرة للعدو، فكان والله أن سقطت طائرة أف-15 أو F-15 في جبال النقب، في اليوم الثاني من هذا الدعاء، وقتل طاقمها المكوّن من الطيار ومساعدته، وكان ذلك بتاريخ 2010/10/11.

والأخ نضال خرج من المسجد الأقصى المبارك، ليلة 27 رمضان للعام الميلادي 1989، وقد تزود من هذه الليلة المباركة، وقتل صهاينة طعناً بالسكين، وبسببهم دخل السجن، وقد حكمت عليه محاكم الاحتلال بالسجن المؤبد. وهو من شباب الإخوة في الجهاد الإسلامي، وأحسبه من الصالحين، وعهدي به أنه من الذاكرين، ومن المحافظين على النوافل صيماً وقياماً لليل، وفرج الله كربه في صفقة وفاء الأحرار.

قبل يوم المحكمة بيومين غادرت نفحة إلى المحكمة في القدس، كان ذلك مروراً ببئر السبع وعسقلان... ونمت ليلتها في سجن الرملة... وفي الصباح، صباح يوم الأربعاء

إلى محكمة الصلح في القدس، وقد تحفظت المحكمة على وجودي في السجن لهذه المدة، فنفذت الشرطة قرار وزير الداخلية بالإبعاد.

في صبيحة اليوم الثاني من اعتقالي، لجأ إخواني النواب والوزير السابق إلى مقر الصليب الأحمر الدولي. ومن يومها والحبل على الجرار، وإخواني هناك في اعتصام إلى أن اعتقلوا غيلةً. ولقد شهدت الأيام والمواقف على صبرهم وثباتهم، وعلى رمزية سياسية أزجعت العدو، واستقطبت اهتمام الرأي العام المحلي والعربي والعالمي. وشكلوا لوناً فريداً في القيادة، وأسطورة رائدة لحالة نادرة، لم يسبق لأحد في زماننا أن خاض مثل هذه التجربة.

الإبعاد:

وعند حاجز بيتونيا، توقف الزمن إن حُق لي أن أقول ذلك، وشعرت شعوراً غريباً، لم يكن في حسابي في يوم من الأيام، شعرت كأن قلبي انخلع من مكانه، فهو هناك في القدس، وفي الأقصى وفي أم طوبا. ووجدت في استقبالي إخواني النواب، الدكتور عمر عبد الرازق، والمهندس عبد الرحمن زيدان، والشيخ الداعية فتحي القرعاوي، والأخت منى منصور، والأستاذ رياض رداد، والدكتور ناصر عبد الجواد، والشيخ حسني البوريني، وأبو عمار منصور، والأخ الفاضل (أبو صالح) محمد حسن عمار. وفي مكاتب الإخوة النواب في المصايف، التقينا جميعاً إخواننا من الوسط والشمال والجنوب، وأبنائي العاملين في المكتب، مراد أبو البها، وأم عمرو الشيخ قاسم، وخلدون المظلوم، وإبراهيم السبع، وبهاء فرح، وعبد الله غانم. وأشكر لهم حسن الاستقبال، أما السلطة الفلسطينية، فلم يكن لها حضورٌ على الحاجز، ولو لعذر، أو موقف احتجاج على هذا الإجراء. بعدها جاءني الأخ عيسى قراقع بصفته وزيراً للأسرى في حكومة رام الله، ومعه وفد من الوزارة... وجاءني النائب عزام الأحمد، بتكليف ونيابة عن أبي مازن، إلى الفندق، الذي أقيمت فيه، إلى أن استأجرت بيتاً. وجاءتني الوفود من القدس، ولم تتوقف إلى يومنا هذا، فالوفاء لأهل القدس، وفود لم تتسع لها قاعة الاستقبال في الفندق، ودون تمييز بجميع فصائلهم وعشائرتهم... فتح مع حماس والشعبية والجهاد الإسلامي... كلهم بشعور فياض من الحب والتقدير.

أما الضفة الغربية، فقليل من إخواني زارني، وعلى خوف، وبقية الفصائل لا تسمع لهم ركزاً. حتى النواب من القوائم الأخرى لا يعيشون مع القدس من خلال موقف تضامني مع نوابها، ولو كانت حاضرة في نفوسهم لتضامنوا مع نوابها من خلال اهتمامهم بها، لا من خلال الدعاية.

هذه هي الطريق، وزادها الصبر على المكاره، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾⁴⁹، فبعد غربة عاشها المسلمون بعيداً عن دينهم، ها هم اليوم يعودون لترتوي أرواحهم من ماء الوحي الطهور، ويطيحون بأعمدة الحكم الجبري، ليستأنفوا الحياة الإسلامية بإذن الله.

لقد صبروا، وصابروا وربطوا ليرتاح محمد إقبال في قبره، وقد أوجعته هموم المسلمين، وأوجعه حال الأمة. ولترتاح أرواح المجاهدين، في مصر وسورية والعراق، واليمن وليبيا والجزائر والسودان، ولترتاح هناك في الهند والصين وباكستان وأفغانستان، في كشمير وفي كوسوفا والبوسنة والهرسك، وفي الشيشان، وكل مكان من أرض الإسلام. وهنا في أرض فلسطين وفي رحاب المسجد الأقصى المبارك...

وما مثلي وهذه الطريق، إلا كفارسٍ امتطى صهوة جواده، لا يقبل ولا يستقبل، ولا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا يفارق أحدهما الآخر، حتى يفرق الموت بينهما.

إنها واحد وثلاثون عاماً، قضيتها في سجون الاحتلال، أحتسبها عند الله، وكما شعرت بالضعف، كان دفء الإيمان يُغذي روحي بالقوة. ويعلم الله أنني ما خذلت ديني، ولا خذلت إخواني في موقف هم في حاجة إلي. وأستغفر الله... ثم أستغفر الله على ما فرطت في جنب الله، فالحياة لا تخلو من السقطات، ولكني والله ما عاقرت خمراً في يوم من الأيام، ولا عرفت الزنا، ولا اعتديت على مال من ورائه شهوة السرقة، فالسارق يسرق البيضة. وانتصرت للمظلوم، واعتذرت لمن كنت سبباً في أذاه، وربأت بنفسني عن المعاصي التي تخل بالمروءة، أو تذهب بالرجولة. وأحب الأمور إلى نفسي أن يكون أخي في الله أحسن مني، في كل شيء؛ لأنه كلما كان أحسن مني كان لي أكثر مما أكون له، ولا أريده أن يكون لي لحسب أو نسب، وإنما لدينه ودعوته، وكما تعلمنا من سلفنا الصالح: "أعرف الحق تعرف أهله، الحق لا يعرف بالرجال، بل الرجال يُعرفون بالحق".

⁴⁹ القرآن الكريم، سورة الرعد، آية 17.

الاعتقال الثامن:

لأول مرة تمّ لنا صيام رمضان مع العائلة منذ سنة 2005، حيث كان اعتقالنا سنة 2006، بعد نجاحنا في الانتخابات التشريعية، ودخل علينا رمضان ويتلوه رمضان ونحن في غياهب السجن، غرباء حتى في أوطاننا، إلى أن خرجنا سنة 2010، ولأربعين يوماً فقط عشتها في القدس طريداً لشرطة الاحتلال، إلى أن اعتقلت مرة أخرى لخمسة أشهر بتهمة التسلل إلى القدس، وأنا ابنها وما غادرتها ولا غادرتني طيفها، وكان حظي من رمضان والعيدين من ضمن هذه الأشهر الخمس، ثمّ ختمت بالإبعاد عن القدس، وذلك بتاريخ 2010/12/8.

هذه المرة من سنة 2011، دخل علينا رمضان، وبينني وبين القدس جدار الفصل العنصري، وقرار دولة الاحتلال بالإبعاد، وفي جعبته الخير الكثير، والبركات والحسنات، وأجواء إيمانية تطغى على كل الصعاب والأحزان، لأن في رمضان سلوى وعزاء لكثير من هموم النفس، فصمته وأهلي بعيداً عن القدس، وعن المسجد الأقصى، بعيداً عن أجواء القرية، وعن الأهل والرحم والذاري، وكان العيد بما فيه من النشوة والفرحة على تمام الصيام ﴿وَلِتَكْبِرُوا لِلَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁵⁰، إلا أنه لم يخل من مشاعر موجعة على صعيد الأرحام التي تقطعت بسبب الاحتلال والإبعاد.

بعد العيد مباشرة باشرت في صيام الأيام الستة من شوال، وبعد تمامها وليلة العيد منها، وإذا بقوات الاحتلال تطرق علينا الباب، وقد ضربت طوقاً أمنياً على الحي الذي أسكنه، فقامت فزعاً من النوم لهمجية الطرق التي أزعجت الجيران ومن في البناية، فأيقظت أهلي، ثمّ فتحت لهم الباب. وبلا مقدمات طلبوا مني أن أصحبهم دون تحديد الجهة، وأعطوني فرصة غيرت فيها ثيابي وحملت حقيبة بها غيارات ودواء لعلاج الصدفة.

ودّعت أهلي وسرت معهم، وأنا معصوب العينين، ومقيد اليدين، وسارت بي ناقلة الجند إلى أن وصلت السجن المقام على أراضي بيتونيا ورافات ويطلقون عليه عوفر، كان ذلك في صبيحة يوم الثلاثاء 2011/9/6، وصوت الأذان ينطلق من المآذن القرية لصلاة الصبح، فطلب الجنود مني النزول من الحافلة. ولأكثر من ساعتين وأنا جالس

⁵⁰ القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 185.

على الأرض، وهم ينتظرون من المعتقل أن يستلم القادم الجديد، وقريباً من السادسة صباحاً حضر ضابط عدد السجن، يقال له الشيخ عبد الله، من دروز الشمال الفلسطيني، فاستلمني من الجيش، وسار بي إلى عيادة السجن، وقام بعرضي على الممرض، وأجرى لي بعض الفحوصات اللازمة والمتعارف عليها منها الضغط وتخطيط القلب. والحمد لله، فقد عافاني الله من هذه الأمراض، إلا الصدفية فهي مزعجة، وعانيت منها طويلاً، إذ لم يغادرني أذاها حتى الآن، ولمدة سبعة عشر عاماً، وبينما أنا بين يدي الممرض وهو من الطائفة الدرزية كذلك، وإذا بمدير السجن يدخل عليّ العيادة، ويسلم علي، فسألني: هل تعرفني؟ فأجبتة بنعم، وقلت له: أعرفك منذ سنة 1999، وأنت ضابط استعلامات في سجن شطة، وسميته باسمه، وهو من يهود ليبيا.

بعد أن انتهيت من الفحوصات، صحبني الشيخ عبد الله إلى ضابط استخبارات السجن وعرفني على نفسه بعد أن رحب بي. ثم طلب من أحد الحراس أن يأخذ بي إلى قسم (12) والمحسوب على حماس.

هذا القسم يعيش فيه 120 مجاهداً من شباب حماس وشيبيه، وأول من استقبلني مع الصباح وهو ينتظر الخروج إلى المحكمة فضيلة الشيخ حسن يوسف، الذي اعتقل وهو في طريق عودته إلى البيت على حاجز زعتر، بعد أن انتهت من صلاة رحمه بمناسبة العيد، اعتقلوه ولثمانية أيام بتهمة الدخول إلى القدس، في رمضان. ويشاء الله أن يذهب إلى المحكمة في هذا اليوم ولا يعود إلى السجن، ثم أطلق سراحه ليعود بعد شهرين إلى المعتقل بلا تهمة تحت اسم الحجز الإداري، وبعد حين حوّلوه إلى قضية، والشيخ جزاه الله خيراً، نحسبه من الصابرين، وهو رجل مرحلة، والعطاء ديدن عنده، وهمه أن تنتصر دعوته.

ثم كان من المستقبليين الإخوة الكرام (أبو حمزة) أحمد الطيبي، الناطق باسم القسم، ونائبه حذيفة العواودة، و(أبو إبراهيم) سامي حسين أميرنا في السجن، وهو رجل محاور، وراجح العقل، وله تجربة 23 سنة سجن. ولجدارته في القيادة قال لي الأخ إسماعيل الزير في اليوم الذي خرج فيه سامي حسين من السجن، إن عشرة من الرجال لا يقومون مقامه، وزاد على ذلك، ليبقى معنا في السجن، لما فيه أبي إبراهيم من احتراف في العمل التنظيمي والإداري. كل ذلك شهادة على حسن أداء أبي إبراهيم رضي الله عنه واستقبلني أبو إبراهيم آخر، هو الحبيب عبد الله السعافين، الذي يعمل

ممرضاً في الرعاية، ونعم الرجل عبد الله، حوت في عمله، عجيب في متابعته لمشاكل القسم الذي كنا فيه، لأنه كان أمير القسم، واستقبلني الأخ المجاهد رياض ناصر (أبو مسلم)، والذي تعرفت عليه لأول مرة، وهو الأمير لحماس بعد الأخ سامي حسين.

والتقيت في الأقسام الأخرى، من خلال هذه الأيام، أحباب قلبي ورفاق دربي (أبا عاصف) عمر البرغوثي، الذي قال لي فيه ضابط في الشاباك: أنتما اثنان لا غنى لكما عن السلاح، تعب الناس ولم تتعبوا: عمر البرغوثي والشيخ أبو طير. ولما جمعتني الأيام... بل السجون بالأخ الحبيب (أبي عاصف)، ذكرت له ذلك، فقال لي: إنهم قالوها له: فقلت الحمد لله أن هناك بقية لا تقيل ولا تستقيل، ولا تريح ولا تستريح، والذي بيني وبين الرجل من العاطفة أني لا أناديه إلا: يا ابن أم، وهو كذلك فرج الله كربته، ورضي عنه. والتقيت بالأخ الحبيب رفيق الدرب وشقيق الروح (أبا صالح) محمد عمار، رضي الله عنه.

هذه هي دولة الاحتلال، اشتغلت بها أم لا... لا يتركوك، فالأولى، وهو ما آمنت به، وما تخلت عنه في يوم من الأيام، أن تبقى قدمك في الركاب، وألا تبرح سهوة جوادك.

المهم بعد يومين من الاعتقال، استدعيت إلى مقر الشاباك في منطقة "عوفر"، ولساعة تقريباً والحديث بيني وبين شرطة الشاباك يدور عن عضويتي في حماس، وعن زيارات بعض الناس لي في البيت، وعن أموال لا علاقة لي بها. وأن شاباً من الخليل ذهب إلى سورية والتقى بالشيخ صالح العاروري، وأعطاه مبلغاً من المال قدره 18 ألف دولار مخصصات لي، فقلت لرجل الشاباك هذه الأموال لم يصلني منها شيئاً، وباعتراف الأخ صاحب الشأن أنه صرفها على سداد ديونه. وشاب آخر من القدس اعترف أنه أعطاني 4,500 دولار، فقلت للمحقق: المنطق يستدعي أن أقوم أنا بإعطائه... لا هو. والصحيح أني لم أستلم شيئاً منه كذلك.

بعدها بلغوني بستة أشهر إداري، ومحكمة تثبيت واستئناف، لم تأخذ المحكمة الأولى والثانية بالذي قلته لهم، وطلبته منهم، إن كان لكم عندي شيئاً فحاكموني، أما أن تحتجزوني تحت مسمى مواد سرية، فهذا كذب. أطلب من المحكمة أن تقدم لي لائحة اتهام، وأنا أعترف لكم بكل شيء. لكنهم رفضوا وعلى الخصوص النيابة والشاباك. وقلت في مرافعتي للحاكم العسكري، لو أردت أن أشتغل فيكم، لما رأيتمني واقفاً أمامك، ولما جعلت لكم سبيلاً إلي... ولكن دون جدوى. وقبل أن تنتهي الستة أشهر جددوا لي بستة أشهر أخرى، ومحكمة تثبيت واستئناف مرة أخرى دون جدوى. ولولا نهاب

المحامي فادي القواسمي إلى العليا الإسرائيلية، عندها أرغمت النيابة أن تتراجع، وأنه ليس في نيتها التجديد وتكتفي بانتهاء المدة.

وجمعنا الأيام والسجون بأحبابنا من أبناء هذا الشعب، وهذا الطريق، وهذه الدعوة، المجاهدين فتحي الجولاني ونضال القواسمي والحاج نبيل النتشة أبو نعيم، والذين تشرفت بلقائهم جميعاً. ومرة أخرى تجمعنا ساحات السجون بنواب الشرعية الفلسطينية الدكتور عزيز الدويك، رئيس المجلس التشريعي، والإخوة الشيخ حسن يوسف، والمهندس عبد الرحمن زيدان، والشيخ خالد طافش، والدكتور أيمن دراغمة، والدكتور محمد أبو جحيشة، والأخ عبد الجابر الفقهاء، والأخ أحمد مبارك، والأخ فضل حمدان، والدكتور غسان ذوقان، والدكتور محمد غزال، والدكتور محمد علي الصليبي المحاضرين في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، والإخوة فراس جرار، وعلاء أبو خضر، وسمير الأسطة، وعضو الله اشتيه الذي له باع في التمثيل الاعتقالي... وجميعهم أصحاب تجربة اعتقالية ناضجة وحصلوا على شهادات جامعية بتفوق.

هذه هي منازلنا بين حين وآخر، إنها السجون التي ظنَّ العدو الصهيوني أنها نهايتنا. وذات مرة قلتها لضابط في الشاباك: أنتم على الوجهين في أزمة معنا، فحضورنا خارج السجون عبئ عليكم، ولا يطيب لكم العيش حتى وإن لم نباشر دورنا والمطلوب منا تجاه هذا الشعب، وهذه القضية. فمن الصعب عليكم أن تتركونا نعيش ولو القليل على هامش الحرية، ولا حرية في ظل دولة الاحتلال. وإن كنا داخل السجون، ففيها نقوم على إخواننا وأبنائنا بما هو محرّم علينا في الخارج، وبما هو محظور علينا متابعتة في الخارج، من تربية وتعليم وإعداد نفسي وجسدي. فعلى سبيل المثال ولدنا موسى الخطيب من حزما، أتم حفظ كتاب الله، وحظيت والشيخ حسن يوسف بالشهادة على السند الذي لقنه إياه الأخ الحبيب نظام اشنية... وعلى هذا... قس. ويا سبحان الله، ما تربي سيدنا موسى ﷺ إلا في بيت فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾⁵¹، ونحن جعلنا من السجون مدارس وجامعات، وحقولاً للتربية والإعداد، وما من يوم إلا وفيه عطاء، محاضرات لجميع من في القسم يوماً بعد يوم، ويقوم عليها علماء وأساتذة جامعات، ولجنة ثقافية تقوم على هذا الأمر، وفي الليل وبعد صلاة العشاء أسر لمعظم الحجرات.

⁵¹ القرآن الكريم، سورة الشعراء، آية 18.

صفقة وفاء الأحرار:

استيقظ الناس داخل السجون وخارجها على الأخبار التي تحمل في طياتها أن اليوم، يوم الثلاثاء 2011/10/18، هو يوم تحرير أسرانا من سجون الاحتلال، بموجب صفقة تمّ الاتفاق عليها وعلى تنفيذها برعاية مصرية وعلى مرحلتين؛ المرحلة الأولى بالإفراج عن قائمة قدمتها حماس، وعدد أفرادها 477 أسيراً، وفي المرحلة الثانية 550 أسيراً، وكل ذلك مقابل الجندي الصهيوني الأسير من أرض المعركة جلعاد شاليط.

هؤلاء الذين خرجوا في المرحلة الأولى... معظمهم من ذوي الأحكام المؤبدة، ومدى الحياة... لرجالٍ ونساءٍ أوجعوا العدو الصهيوني، وأصابوا منه مقتلاً، وتنادى من خلال الإعلام بصوت عال، أنه لن يفرج عمن تلطخت أيديهم بالدماء... بالطبع دماء الصهاينة. لكنه في نهاية المطاف، وبعد مفاوضات مُضنية استمرت خمس سنوات، أذعن العدو، وأُجبر على تحرير هؤلاء الأبطال، وانكسرت شروطه، ولويت ذراعه أمام تصميم المفاوض القسامي وإرادته، لتكون هذه الصفقة أعظم صفقة في تاريخ القضية الفلسطينية. حيث خرج من سجون الاحتلال 1,027 من الأسرى والأسيرات مقابل هذا الجندي.

هؤلاء الذين خرجوا في المرحلة الأولى الـ 477 أسيراً... هم جنرالات ومفكرون وقادة ميدانيون على صعيد الانتفاضتين الأولى والثانية. والعقبى إن شاء الله لمن بقي في سجون الاحتلال، وسيكون ذلك إن شاء الله.

سبق أن حصل سنة 1985 صفقة تبادل بقيادة الجبهة الشعبية - القيادة العامة. وكانت صفقة متميزة، وعرساً فلسطينياً بامتياز. وفرح الوطن بعودة أبنائه، وكانت فرحة غامرة، وخرج من سجون الاحتلال على يد هذه الصفقة 1,150 مناضلاً... مقابل ثلاثة جنود صهاينة، كانوا وقعوا في الأسر سنة 1983، وكانوا في سجون خارج الأرض المحتلة. أما صفقة وفاء الأحرار، فكان الجندي محتجزاً في غزة في حماية المقاومة، وغزة في عُرف الاحتلال ساقطة أمنياً، وأن يده طائلة، وأنه كان يراهن على الزمن في الوصول إلى الجندي، وأنه سيحرر شاليط أو يغامر فيقتله، ولا أن تُكسر إرادته، ويذل هذا الذل.

نعم، من خرّج في هذه الصفقة من رجالنا، أولوا بأس وعملياتهم نوعية وجريئة، منها خطف الجنود، وحصد آخرين فيهم الكثير من الجنود من خلال تججير الحافلات التي

تُقلهم، وما سبق أن حصل بهذا الزخم في تاريخ الثورة الفلسطينية. فقد فرض مجاهدونا معادلة صعبة على الاحتلال، وبعملياتهم هذه منعوا التجول وركوب الحافلات داخل فلسطين المحتلة، وأصبحت حياة الإسرائيليين جحيماً، وتعطلت حركة السير، وامتنع الناس خوفاً من ركوب الحافلات.

لقد خرج الأسرى في جو احتفالي مهيب، وشملت الصفقة جميع التنظيمات دون استثناء. وكان لحركة فتح حظ وافر في هذه الصفقة، إلا أن بعض النفوس الرديئة لا بد وأن تبخس هذه الصفقة؛ وهذا شأن الموتورين العاجزين، الذين لم يعجبهم ذلك، فخرجوا علينا بالسنة حداد شداد... أشحةً على الخير. وصدق الله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾⁵²، وإني لقريب من هؤلاء الناس الذين خرجوا في هذه الصفقة وأعلم جيداً أن منهم مَنْ يكيّدون لنا، ويتآمرون علينا داخل السجن وخارجه، لكنها الرحمة بعائلاتهم وأهلهم وذويهم، رحمة بأبنائهم وبناتهم. وكان أجدر بهم أن يعملوا على تحرير من يخصهم، وقد كان حظهم في الإفراج على يد "حسن النوايا" من قبل الاحتلال لعيون السلطة، وافرأ لفتح دون سواها، والحمد لله أن حسن النوايا هذه لم تأت علينا، ولم تشملنا.

إن قيادات حركة فتح داخل سجون الاحتلال وممثليها، وعلى رغبة منهم، طلبوا من مصلحة السجون أن تجمعهم في سجن ريمون من الشمال إلى الجنوب، ليتآمروا على الإضراب الذي قاده حركة حماس بتاريخ 2012/4/17، فوافقت لهم مصلحة السجون وجمعتهم في السجن المذكور، وأجمعوا على عدم دخول فتح في هذا الإضراب، وألا يتضامنوا معه، بل وأمروا عناصرهم التي دخلت الإضراب أن ينسحبوا منه، حتى لا يكون إنجازاً لحماس، وحتى يجهضوا الإضراب، ويفشل كما خذلونا في الإضرابات السابقة وعلى الخصوص إضراب 2004. لكن الله سبحانه أحبط مكرهم وتدبيرهم، وإن كانت وزارة الأسرى في السلطة ونادي الأسير رموا بثقلهم دعماً للإضراب ومع الإضراب، إلا أن قيادات فتح في السجون بقيادة جمال الطيراوي، وكريم يونس، وجمال الرجوب، وشادي الشلالدة وآخرين رضوا لأنفسهم دوراً انتهازياً، وأن يكونوا متكافئين لمصلحة السجون في إفشال الإضراب. لكن نجح الإضراب والحمد لله، وكانت معركة فاصلة وحاسمة، وشكل انتصاراً للحركة الأسيرة، وبرعاية مصرية انتهى الإضراب

⁵² القرآن الكريم، سورة الرعد، آية 5.

إلى إنجاز رائع وكبير هو خروج جميع مَنْ في العزل إلى السجون، وأن يسمح لعائلات أسرى غزة بزيارة أبنائهم.

على كل حال عودة إلى الصفقة، حيث انتظر الناس جميعاً هذا اليوم، وانتظرت السجون طويلاً هذه الفرصة، وأطلق سراح تيسير سليمان الذي أجمعت قيادة الشابات على عدم إطلاق سراحه ضمن كل الظروف، وأطلق سراح الأخت المجاهدة أحلام التميمي، التي استفزت هيئة المحكمة العسكرية في حديثها ضد الاحتلال، وأنها غير نادمة على ما فعلت، ولو قدر لها الخروج ستعود ثانية إلى المقاومة، فكانت وصية المحكمة بعد الحكم عليها بالمؤبد ألا تخرج من السجن ضمن كل الظروف، وخرجت عزيزة كريمة رافعة الرأس وتلوح للناس بأن المقاومة هي الطريق.

وخرج في هذه الصفقة الأخ المجاهد نائل البرغوثي، عميد الأسرى في سجون الاحتلال، والذي أمضى من عمره في السجون 33 سنة ودخل الرابعة والثلاثين، خرج وهو مرفوع الرأس، ويلوح للجماهير بأن القوة هي العنوان من أجل تحرير الأسرى.

احتفلت فلسطين هنا في الضفة المحاصرة المكبلة، وكسرت الجماهير حاجز الخوف، ورفرفت رايات حماس الخضراء في مقر المقاطعة، وقالت أختنا المجاهدة أم عناد شقيقة الأخوين المجاهدين نائل البرغوثي (أبو النور) وعمر البرغوثي (أبو عاصف): بقدر ما فرحت لخروج نائل من السجن، إلا أن فرحتي كانت أكبر وأنا أرى رايات حماس ترفرف داخل المقاطعة. وذلك بسبب الظلم الذي مارسته الأجهزة الأمنية للسلطة على حركة حماس، وعلى المقاومين. خرجت الخليل بالرايات الخضراء تستقبل الأبطال، وخرجت بيت لحم، ورام الله، ونابلس، وجنين، وخرجت غزة عن بكرة أبيها، وفي استقبال مهيب لهذه الفئة المباركة من الأسرى بعد أن مَنْ الله عليهم بالفرج ومن الأسر إلى الحج مباشرة... بالأمس كانوا في السجون، واليوم يقفون من على عرفات يلبون ويتطهرون... ويذكرون الله على ما هداهم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁵³.

الإضراب عن الطعام:

بعد أن مضى على الصفقة خمسة أشهر، وبقي في السجون رجال شبعوا من حليب أمهاتهم، وهم كذلك أوجعوا الاحتلال وأفقدوه صوابه منهم الجنرال عباس السيد، والجنرال جمال الهورن والبقية من الجنرالات القائد الفذ محمود عيسى،

⁵³ القرآن الكريم، سورة الجمعة، آية 4.

وعبد الناصر عيسى، والشيخ المجاهد جمال أبو الهيجا، ومهند شريم⁵⁴، ومعمّر شحرور⁵⁵، وحسن سلامة، وأكرم القواسمي، وأيمن سدر⁵⁶، ومعاذ وعثمان بلال، والقائد محمود شريتح⁵⁷، وكثير من إخواننا. بعد هذه الفترة بدأ التفكير والعمل في الهم الحاضر، والذي لا يفارق ذاكرة الأسرى، ألا وهو إخوانهم في العزل الانفرادي، والذي طال أمده؛ طال طويلاً لاثنتي عشر عاماً للأخ القائد محمود عيسى، وحسن سلامة، والشيخ جمال أبو الهيجا، وعباس السيد، طال عليهم العزل. فدفع إخواننا بثقلهم وعلى الخصوص الإخوة الذين قادوا الإضراب بجدارة وكفاءة متناهيتين القائد جمال الهور معه الابن القائد مهند شريم، والأخ علاء أبو جزر⁵⁸، من فتح "نفحة"، واتفق هؤلاء على أن الأيام القادمة حاسمة، ولا بدّ من خطة استراتيجية تخرج مَنْ في العزل من إخواننا، وأن تعود زيارات غزة لأبنائهم في السجون بعد انقطاع دام خمس سنوات. وأن يوقفوا هجمة مصلحة السجون ضدّ الأسرى.

⁵⁴ مهند طلال شريم (1975-): ولد في مدينة طولكرم، التحق في جامعة النجاح الوطنية، نشط في صفوف كتائب القسام إثر اندلاع انتفاضة الأقصى، شارك في الإعداد والتجهيز لعملية فندق بارك التي نفذها الشهيد عبد الباسط عودة، اعتقل في 2002/5/8، وحكم بالسجن لمدة 29 مؤبداً وعشرين عاماً. وكان اعتقل قبل ذلك 14 مرة في سجون الاحتلال ليقضي ما مجموعه ست سنوات لنشاطه في الكتلة الإسلامية.

⁵⁵ معمّر فتحي شحرور (1979-): ولد في مدينة طولكرم، وحاصل على دبلوم تربية رياضية. انتظم في صفوف كتائب القسام مع اندلاع انتفاضة الأقصى. شارك في الإعداد والتجهيز لعملية فندق بارك التي نفذها الشهيد عبد الباسط عودة. اعتقل بعد مطاردة في 2002/5/9، وحكم بالسجن المؤبد 29 مرة وعشرين عاماً.

⁵⁶ أيمن عبد المجيد سدر (1966-): أسير مقدسي ولد في أبو ديس، متزوج وله ولد. اعتقل سنة 1991 لمشاركته في فعاليات حركة حماس في الانتفاضة الأولى. أسس خلية لاختطاف جنود صهيانية، ثم تواصل مع كتائب القسام والقائد محمد الضيف. كلف بتقديم الدعم اللوجيستي للاستشهاديين عصام الجوهري والمصري حسن عباس اللذين نفذوا عملية مسلحة في "نحل اشبعاه" بالقدس في 1994/10/9، وللإستشهادي أيمن راضي الذي فجر نفسه في 1994/12/25 في عمليات جاءت رداً على مجزرة الحرم الإبراهيمي. عمل على إنشاء خلية مقدسية خططت بتوجيه من الضيف لاختطاف جنود صهيانية ونقل سلاح من قطاع غزة إلى الضفة الغربية سنة 1994. اعتقل في 1995/5/12 عند حاجز إيريز العسكري. حكم بالسجن المؤبد 35 عاماً.

⁵⁷ محمود حماد شريتح (1977-): ولد في بلدة يطا جنوب الخليل. تخرج من كلية الهندسة في جامعة بيرزيت، وأصبح أمير الكتلة الإسلامية في جامعة بيرزيت وشغل منصب رئيس مجلس الطلبة 2001/2000. اعتقل في سجون الاحتلال وسجون الكتلة لنشاطه في الكتلة الإسلامية. انتظم في الانتفاضة الثانية في صفوف كتائب القسام حيث أسهم في التجهيز لعمليتين إستشهاديتين ضدّ الصهاينة. اعتقل في 2005/10/17، وحكم عليه بالسجن المؤبد سبع مرات.

⁵⁸ علاء شحادة أبو جزر (1976-): ولد في رفح جنوب قطاع غزة. نشط في مقاومة الاحتلال إثر اندلاع انتفاضة الأقصى. اعتقل في أثناء سفره مع والده المريض في 2001/1/15، وحكم عليه بالسجن 18 عاماً. توفيت زوجته وبقيت ابنته وحيدة. استشهد شقيقه أيمن أحد قادة ألوية الناصر صلاح الدين بعد قصف طائرات الاحتلال لسيارته في شباط/فبراير 2009. يشغل أبو جزر مسؤولية ممثل المعتقل في سجن بئر السبع.

قبل البدء في الإضراب، رفع إخواننا برسائل كثيرة إلى مصلحة السجون، تطالبها بأن تتحرك إيجابياً على صعيد العزل، وأن تحدد جدولاً زمنياً لعلاج هذه الظاهرة، لكن مصلحة السجون بقائدها لم تتفاعل مع هذه الرسائل، إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة. فشكّلت لجنة قبل الإضراب بأيام لم يسعفها الوقت، وغير مؤهلة لقرارات ملزمة تلبي القليل من مطالب الأسرى، ومهمتها فقط أن ترفع انطباعات عن حالة الأسرى، ولا حلّ إلاّ على مزاج قائد المصلحة.

اجتمعت اللجنة بمعظم السجون، وحضرت إلينا في السجن، والتقيت بها مع الأخوين الذين قادا الإضراب سامي حسين ورياض ناصر، وقلت لها بأن لا سبيل لوقف الإضراب وعدم الدخول به إلاّ بخروج المعزولين من العزل. وتنقلت اللجنة بين السجون وتحدثت إلى قيادات الإضراب قبل أن يبدأ، وحاوروها وحاورتهم، وقالوا لها: إنّ السجون على صعيد حركة حماس وتنظيم فتح في نفحة فقط اتخذت قراراً في الدخول إلى الإضراب... وحددوا له تاريخاً هو 2012/4/27. ثمّ في خطوة سريعة ومفاجئة قدموا التاريخ إلى يوم 2012/4/17، يوم الأسير الفلسطيني. حيث دخل نفحة بثقله، وحماس ريمون، وحماس إيشل في بئر السبع، وباء بالخذلان سجن عسقلان بقيادة فتح. وتضامنت السجون جميعها مع الإضراب ودخلت الجبهة الشعبية والإخوة في الجهاد الإسلامي هذه الملحمة، وكان للجبهة حضورها القوي في هذه المعركة، في الوقت الذي أجمعت فيه قيادات فتح في السجون على عدم الدخول في الإضراب... واجتمعت كما ذكرت من قبل في سجن ريمون لثلاث ليالٍ، خرجوا بعدم الدخول في الإضراب، بل وألقوا بأوامرهم على عناصر فتح بالانسحاب من الإضراب، لكن شباب غزة من حركة فتح رفضوا ذلك، وحازوا على شرف المشاركة.

كانت هذه القيادات قد غلبت مصالحها الذاتية على المصلحة العامة، بل ورضيت أن تكون ورقة ضغط ضدّ الإضراب، وهم من ذكرت سابقاً جمال الطيراوي، وكريم يونس، وجمال الرجوب... وآخرون.

ابتدأت معركة الأمعاء الخاوية... ومن يوم إلى يوم مع إضراب الإخوة الإداريين تفاعلت الأرض مع الإضراب وتضامنت السجون... ونحن في سجن بيتونيا "عوفر" تضامناً جزئياً من خلال أيام متفرقة، وأسبوعين كاملين، إلى أن انتهى الإضراب على صعيد قسم واحد، ضمّ شباب حماس والجبهة الشعبية، ومشاركة إخوة من الجهاد الإسلامي وفتح كذلك.

ومضى المضربون في معركتهم، والأرض من حولهم تتفاعل، والإعلام أحسن دوره... ولا ننكر دور نادي الأسير بقيادة قدورة فارس، وكذلك دور وزير الأسرى في حكومة السلطة عيسى قراقع، وكذلك الإعلام في غزة لعب دوراً هاماً في تفعيل الرأي العام... إلى ما قبل ذكرى يوم النكبة 2012/5/15، حيث بدأت بشائر الانتفاضة الثالثة... لكن هذه المرة تجلّى زخمها داخل فلسطين المحتلة سنة 1948. فخاف العدو، وأدرك الاحتلال، أن الوضع على صفيح ساخن، وأن ما يلوح في الأفق خطير... خطير جداً، فأذعن أخيراً وبوساطة مصرية، وبقرار في مستواه أعلى من صلاحية مصلحة السجون، وذلك بحضور الشاباك، وقبوله بمطالب الإضراب وأولها: خروج مَنْ في العزل جميعاً دون استثناء؛ حيث انتهى دور مصلحة السجون، وأسلوب "القطارة" الذي اتبعته في حقّ ملفات العزل وعرضها كل ستة أشهر على لجنة مختصة بيدها تجديد العزل. وهيئات لهذا الأسلوب أن يَرشَح بشيء، لأن عمل اللجنة مزاجي ولا يقوم على خيارات أو قواعد من المنطق.

قبل الشاباك ومصلحة السجون بمطالب الأسرى، وخرج مَنْ في العزل مباشرة بعد أن أوقف الأسرى إضرابهم. وعندنا في معتقل عوفر قاد المرحلة وبجدارة الأخوان الكريمان سامي حسين (أبو إبراهيم)، ورياض ناصر (أبو مسلم)، وكانا على قدر المسؤولية. وإن كنت تجاوزت حدودي في بعض المواقف الضاغطة على الأخوين، إلاّ أنهما صبرا عليّ مشكورين... وهذا قمة في أدب وأخلاق الرجلين. وكان الفضل في قيادة الإضراب للأخوين من حماس جمال الهور (أبو تقي) ومهند شريم، وعلاء أبو جزر ممثل عن فتح في سجن نفحة، والذي رفض ما أجمعت عليه قيادات فتح في السجون.

لكن بعد هذا النجاح الذي طار ذكره في الآفاق، وانتصر فيه الجوع على الركوع، وبعد هذا الانتصار الذي أخرج الحركة الأسيرة، من عقدة الفشل التي لازمتها سبع سنوات، جراء إضراب سنة 2004. بعد هذا الانتصار الذي أعاد للحركة الأسيرة اعتبارها، وأن صفقة وفاء الأحرار، التي طالما كان رجالها هم القادة لهذه المعارك، تحدث هذا الإضراب عن نماذج رائعة مخزونها النفسي والمعنوي والإداري، أتى بما لم تأت به جميع الإضرابات السابقة، في ظلّ انقسام داخل السجون، وخذلان ما كان لأيماننا الأولى أن تعرفه.

بعد هذا النجاح الذي غطى على فشل التجارب السابقة، تلكاً العدو، وعلى أقل من مهل في تنفيذ هذا الإنجاز وليقتلوه. إذ لم يف بما تعهد به، فخروج المعزولين من العزل لا يكفي، والعزل كان العنوان لهذه المعركة، والمطلوب هو الوفاء لا غير، لكن العدو ديدنه المماثلة.

إنه يماطل بحق المطالب الأخرى، حتى وإن استجاب مؤخراً بالسماح لأهالي غزة بزيارة أبنائهم في السجون، والذين انقطعوا عنهم طويلاً، هناك مطالب تقدم بها المضربون، ووافقت عليها مصلحة السجون، وهي ملامسة لحياة الأسرى؛ منها التعليم الجامعي، وعودة التوجيهي إلى قاعات السجون، ورفع القيود عن الخروج إلى ساحات السجن لساعات أكثر، وتحسين وضع الطعام كماً ونوعاً، والحد من سياسة الغلاء الفاحش لأسعار الكانتينا، حيث على سبيل المثال، الخمسة كيلوغرامات من التمر عندنا في كانتينا السجن تباع بـ 260 شيكل، يعني 45 دينار أردني (نحو 67 دولار)، بينما هي في الخارج تباع بـ 120 شيكل (نحو 31 دولار)⁵⁹، بل أقل من ذلك. وكثيراً من الأحيان يأتوننا بالتمر البائر الرديء، فانظروا بربكم إلى هذا الابتزاز... وهذا الاستغلال، وهناك مطالب أخرى منها المنع الأمني لكثير من العائلات على صعيد الزيارات.

على كل حال، تنفست الحركة الأسيرة بعد نجاح هذا الإضراب. وإن شاء الله لن تحتاج إلى إضرابات أخرى بل الآن هو دور المقاومة من أجل تحريرهم، كما تحرر إخوانهم الذين عاشوا هذه المحن، فمن الله عليهم بالفرج.

عاد الأسرى بعد الإضراب إلى حياتهم الرتيبة، وارتاحت الأعصاب من الخوف من المجهول، وحافظ قادة الإضراب عندنا على إنجازات الأسرى، وبقي مطبخ المعتقل بأيدي الحركة الأسيرة، دون بقية السجون. إذ الدخول في الإضراب أو المشاركة فيه تهديد مباشر لسحب هذه المرافق من الحركة الأسيرة، لكن لباقية وفن القيادة عند الأخوين سامي حسين ورياض ناصر، لم يترك لرجالات الإدارة مجالاً للسطو على هذه الإنجازات.

هذه هي معاركنا داخل السجون، أن نحافظ على البنيان الاجتماعي لهذه الحركة، وأن يبقى البنيان النفسي شامخاً، والإرادة قوية. والحمد لله على سلامة إخواننا، والحمد لله على هذا النجاح وهذا النصر. الحمد لله على كل حال.

⁵⁹ تم احتساب سعر صرف الدولار مقابل الشيكل الإسرائيلي وفق معطيات بنك "إسرائيل" المركزي في سنة 2012 الذي حدد سعر الصرف بـ 3.858.

مضت الأيام بعد الصفقة والإضراب على رتابتها، ومع كل صباح أستفتح بالأخ الحبيب (أبي صالح) محمد عمار، الذي هو شقيق روحي. ففي كل يوم أبو صالح يقرأ من القرآن ستة أجزاء ورد يومي، وله ورد آخر مع طاولة التنس التي هي رياضته المفضلة، وقلما يغلبه أحد إلا المجاهد يحيى لدادوه مرة له، ومرة عليه. وبقينا على هذا الحال مع كل يوم إلى أن رحلوه إلى سجن النقب.

وسريعاً ما تمضي الأيام، وإذا نحن على أبواب رمضان، فاستقبلناه استقبال المحتاج الذي لفحه حرُّ الهجير، ولأنه ضيف خفيف الظل، سرعان ما يرحل، صمنا نهاره، وأعاننا الله على قيام ليله، وخطبت الجمعة الأولى منه، وقد وافقت الأول من رمضان، وأتى رمضان على خمس جمع، فليالي رمضان مباركة، والعشر الأواخر من رمضان غالية... غالية جداً. وليلة القدر على الخصوص أحييناها جماعة إلى أن صلينا الصبح، وكان شعوري وشعور إخواني أنها ليلة القدر، وقد استشعرنا بندى هذه الليلة وطلاوتها. حتى أن الكلاب المحيطة بالسجن للحراسة لم تنبح ليلتها قط. بينما في الليالي الأخرى لا تسكت عن النباح... فيا سبحان الله.

صمنا رمضان وأتحفنا الشيخ النائب خالد طافش بخطبة العيد بعد الصلاة، وعاش الإخوة في الساحة جواً احتفالياً رائعاً، بالدبكة والأناشيد الحمساوية، بالرغم من أن ذلك محظور عند إدارة السجن، إلا أنها فرضت عليهم، ولباقة من الأمير رياض ناصر استطاع أن يخفف من احتقان رجال الإدارة، وهذه أناشيد العيد، وفرحة العيد. وأخذ الشباب بأغنية كل عام وأنتم بخير يا أهل الضفة الغربية... ويا أهلي في القطاع كل عام وأنتم بخير... وحماس تنادي والشهدا تنادي... ثورة... ثورة على اليهود... وهات "قَطْبُهَا" أو هات حيكها وقد سمعوها واضحة.

انتهت الحفلة على خير، وتزاور الإخوة فيما بينهم في الحجرات. وجزى الله أخانا المجاهد (أبا سيف) عبد الكريم الجعافرة كل خير، الذي أعد للسجن كاملاً، من الحلويات ما تشتهيئه النفس، وبأشكال مختلفة ومذاقات طيبة؛ إذ هو المسؤول عن مطبخ السجن.

وبعد العيد مباشرة، صمنا الأيام الستة من شوال، لحديث النبي ﷺ: "من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر"⁶⁰. والحمد لله، جميع من في الغرفة صاموها، وهناك من الإخوة قصرها على أيام الإثنين والخميس، وتقبل الله من الجميع.

وبعد العيد لم يبقَ إلا أسبوعين على الإفراج، فجاء يوم الأربعاء 2012/9/5، ومن سجن عوفر خرجت بعد حفلة و"بدعة" وأناشيد بقيادة المجاهد خلدون البرغوثي... ومن الحمام حيث حماماتنا في خارج الغرف، وإلى أن خرجت من ساحة القسم والزفة على أشدها. سلمت عليهم جميعاً وودعتهم وأملي بالله ألا يطول عليهم هذا الحال، وأوصيتهم باحترام الأذان، وتلوت عليهم الآية: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾⁶¹، لأن من الناس لا يشبع من الكلام، حتى والأذان يرفع.

كانت الإجراءات سريعة، من قبل إدارة السجن، وحتى وأنت في طريقك إلى الحرية، إلا أن نائب مدير السجن، وإن كان مازحاً، قال لي: "يشي تعوت" يعني في غلط في الإفراج عنك. لم أعر ذلك انتباهاً فوقَّع على الإفراج، وحملتني بوسطة السجن إلى حاجز بيتونيا، وبصحبة ضابط استخبارات اسمه موتي. وتعامل معي بكل احترام حيث أنه لم يضع القيود في يدي ولأول مرة، يخرج سجين وبلا قيود في يديه. وقال لي في اللحظة الأخيرة بعد أن نزلت من الحافلة: شيخ أبو طير، تذكر أنه يوجد يهود جيديون، قلت له: هذا صحيح، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً﴾⁶².

على الحاجز العسكري استقبلني إخواني، وكان مفاجئاً لهم أنني وصلت إليهم الساعة العاشرة والنصف صباحاً. والمعروف أنهم لا يطلقون سراح الأسرى إلا مع المساء، وأحياناً ينقلونهم إلى حاجز آخر. استقبلني الإخوة الكرام النواب أحمد عطون، والدكتور محمود الرمحي، والأستاذ محمود مصلح، والمجاهد الكبير سامي حسين، والحوت عبد الله السعافين، والدكتور ابراهيم أبو سالم، والإخوة من المكتب

⁶⁰ لنص الحديث وتخريجه انظر: صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، الحديث رقم 1006. [المحرر]

⁶¹ القرآن الكريم، سورة الحج، آية 32.

⁶² القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 75.

إبراهيم السبع، وخلدون مظلوم، وبهاء فرح. وبعد حديث مع الصحافة انطلقنا إلى مكتب النواب في المصايف... والتقىنا الناس ورحبوا بنا، والتقىنا بأبنائي وأشقائي، وانطلقت بعدها إلى البيت والتقىنا بأهلي جميعاً.

وفي المساء، بعد صلاة العصر، كان الاستقبال في قاعة أفراح ليومين إلى الساعة العاشرة مساءً، وبعدها بأيام في مكتبتنا، وفي البيت، وإلى تاريخ كتابة هذه السطور 2012/10/6، والناس لا ينقطع حبهم في الزيارات للتهنئة. وجزاهم الله كل خير.